الفلسفية التداولية و أفعال الكلام – دراسة نقدية

إعداد

د/ محمود أبو المعاطي عكاشة

أستاذ علم اللغة

استلام البحث : ٢٠١٨/٥/٥ **قبول النشر** : ٢٥ / ٦ / ٢٠١٨

مقدمة :

لقد ظهرت النظرية البراجماتية(أو التداولية) و ربيبتها "نظرية أفعال الكلام" لدواع فكرية و عقدية و سياسية و اقتصادية أنتجها الواقع الغربي الذي اتسع للصراع الفكري مثلما اتسع للصراع السياسي منذ عصر النهضة حتى زمننا، و قد صارت الفلسفة العقيدة التي يحتكم إليها بعد انهيار الملكية والكهنوتية، و قد تمردت العقيدة الجديدة على المعايير العامة و المرجعيات، و أطلقت عنان الأفكار، و تبلورت عقيدة عدمية العقيدة التي تؤله الوجود في العالم و غاياته، و قد خرجت من رحم هذه العقيدة الفلسفات الوضعية و الواقعية و البراجماتية و الوجودية و غيرها من الفلسفات، و استجابت لها مذاهب لغوية و أدبية و بلاغية و نقدية(*)، و قد ألقت هذه المذاهب بكلاكلها على البحث العربي الوئيد و المتقوت من الدراسات الغربية.

وقد نشأت البراجماتية (التداولية) في كنف العلوم المعرفية، و تفاعلت معها تجاوباً أو تمرداً، فقد رفضت معطيات المدرسة السلوكية

(*) ارجع إلى: البرجماتية اللسانية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الآداب، مصر، ص ٦ فما فوقها.

اللغوية حينما اتخذ علم النفس في مستهل القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية وجهته السلوكية المتأثرة بفلسفة العقل و الذكاء الاصطناعي، و رأى أن تعلم اللغة يخضع لثنائية (التأثير و الاستجابة) المستقاة من تجارب علماء النفس على الحيوانات التي تمكنوا من تدريبها على بعض الأفعال، و عدلوا بعض سلوكها مستجيبة بتعزيز أو تكييف، و قد بحثت البراجماتية و علوم معرفية أخرى (علم النفس، و اللسانيات ، و فلسفة العقل و الذكاء الاصطناعي، و علوم الأعصاب) كيفية عمل العقل (الدماغ) و اكتساب العقل المعارف و تطويرها و استعمالها اعتماداً على الحالة الذهنية[†].

وقد تنازع علم اللسان و البلاغة البرجماتية كلاهما يدعيها لنفسه في البحث العربي، فقد تبناها اللسانيون في السبعينات القرن المنصرم، و رأوا أنها مبحث لساني يدرس كيفية فهم الناس الخطاب و إنتاجهم فعلاً تواصلياً أو فعلاً كلامياً في مقام كلامي محدد، و قد وضعوا لها محاور بحثية ملفقة من فروع بحثية أخرها متأثرين بالدراسات الغربية، و هي: التلفظ ، و أفعال الكلام، و الحجاج (Argumentation)، و الأسلوبية، و نظرية التواصل (Communication)، و المقصدية، و غيرها من المباحث المفتوحة للزيادة، و هي نفسها المحاور التي بحثها البلاغيون التداوليون الذين دمجوا

[†]) ارجع إلى: التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، آن ربول و جاك موشلار ، ترجمة د. سيف الدين دغوس، د. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة و النشر، ط ١،٢٠٠٣م، ص٢٨.

البلاغة في اللغة مسقطين الفروق البحثية، و رأوا أن العلاقة بين البلاغة و علم اللسان علاقة تفاعل مستمرة بلغت الانصهار في بعض المباحث، و عدوا البلاغة السابق التاريخي لعلم النص، فالبلاغة الجديدة المعاصرة تدرس أشكال أسلوبية ترتبط بوظائف الاتصال و وسائل الإقناع الحجاجية بعد أن اجتازت حواجز الموضوعات التقليدية التي عرفت بها تراثياً[‡].

و لكن البراجماتية لم تشتهر في اللسانيات مثلما اشتهرت في البلاغة عند العرب الذين عدوها هي و الحجاج البلاغة الجديدة (Rhetoric) مضاهئين الحداثيين الغربيين، فاستبدلوا بالموضوعات البلاغية و البلاغيين البراجماتية و أتباعها الغربيين، و يرجع سبب تأخرها في علم اللسان أنها تتجاوز محاور اللسان الرئيسة و تفتقد إلى الدقة البحثية التي عُرف بها علم اللسان في العمل بالمنهج و المعايير الثابتة و المحددة، و أن مفاهيمها مبهمة و محاورها مفتوحة، و ليست معينة، و أنها قد اختزلت جهدها في استعمال اللغة في المقام و تعيين القصد الواقعي، و قد رفضها بعض اللسانيين، و عدوها "صندوق قمامة اللسانيات" يرمى فيه كل ما لا يمكن دراسته ضمن موضوعات اللسانيات الأساسية (الأصوات و الأبنية و القواعد و الدلالة)[§].

[‡]) ارجع إلى: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة ١٩٩٧م ص٦، و ١٧، و البلاغة و الأسلوبية، هنريش بليت ترجمة د. محمد العمري، ط١، الدار البيضاء ١٩٨٩م، ص١٦.

[§]) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانقونو، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٥/٢٠٠٦، ص٩٢-٩٣.

و قد تخير لها الباحثون العرب مسمى "التداولية"(**) تحسيناً و تطهيراً لها من آثام "النفعية" النهَّازية و "الوضعية" المغالية في الحسن و الوجود و "الواقعية" مظاهرة الواقع و التجريب، و لكن معني التداولية لا يشمل أبعادها الفلسفية و اللسانية و البلاغية، فقد اختزلها في التناوب و التداول و المحاورة و التواصل، و هي محور بحثي فيها، و مصطلح البراجماتية مستعار من الفلسفة الواقعية التجريبية، فقد نشأ فى كنف الفلسفة ثم انتقل إلى علم اللسان و البلاغة، و له أبعاد ثقافية و تاريخية و سياسية و اقتصادية و اجتماعية.

البراجماتية (التداولية)

البراجماتية (أو التداولية): مذهب حديث في علمي اللسان و البلاغة، و قد شاع بين الباحثين بلفظ "pragmatics" ، و المصطلح العلمي لهذا المذهب في الدراسات اللسانية "Linguistic Pragmatics" : البراجماتية اللسانية أو التداولية اللسانية، و الأول أصح لدلالته على مذهبه الغربي . و هو الذى أميل إليه . و قد استخدم جورج يول اللسانى (George Yule) مصطلح "Pragmatics" فى الحقل اللسانى، و قد استخدم البلاغيون "التداولية" (pragmatics)، و ترجمته العربية لا تدل على مفهومه الغربي كاملاً، فالتداول قريب من الحوار و التشاور و التناوب، و هم يريدون استعمال اللغة و وظيفتها الجودية، و قد اخترت مصطلح (pragmatics) للتفرقة بين المصطلح اللساني و المصطلح الفلسفى "pragmatism"

(**) ارجع إلى: لسان العرب، مادة دول، و القاموس المحيط ، مادة: دول.

(البراجماتية و الفوائدية و النفعية و العملية) في الفلسفة الواقعية[††]، و أصل معناه يونانى قديم، و يعنى "العمل"[‡‡].

---

††) الواقعية مذهب فلسفى أنشأه أرسطو الذى رأى أن الواقع الحسى مصدر المعرفة، و هو أيضا مذهب الوضعية الحديث (Positivism)، و أعيد العمل به فى عصر النهضه الأوربية، وحدث فيه تطوير تأثراً بالنهضة الحديثة، و قد رأى أتباعه أن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية، و قد ترتب على هذه الفكره ظهور المنهج التجريبى الذى أعاد النظر فى كثير من القضايا على أساس علمى، و قد أثر هذا المنهج فى البنيوية اللسانية والتداولية، و مصطلح البراجماتية مستعار من الفلسفة الواقعية و التجريبية، فقد نشأ فى كنف الفلسفة ثم انتقل إلى علم اللسان، و أول من استخدمه فى اللسان الفيلسوف تشارلز بيرس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ارجع إلى: البراجماتية اللسانية، محمود عكاشة، مكتبة الآداب، مصر، ص٦ فما بعدها.

‡‡) المصطلحان: "pragmatics" الإنجليزى، و"pragmatique" الفرنسى، من اللاتينى "pragmaticus" الذى استخدم١٤٤٠م، و هو من الأصل اليونانى "pragma" الذى يعنى: العمل أو الفعل Action، وهو فى اليونانية الحديثة(πραγματολογία: بروماتودجيا) و كلمة "pragmaticos" الإغريقية بمعنى (عملى)، و اشتقت منها الصفة اليونانية"Pragmatikos"، و اشتق الرومان "Progmaticus"، و قصدوا بها "المتمرس" فى المسائل القانونية خاصة، و الكلمة تدل على العمل أو الفعل النشاطى "Action"، و تنسب الموسوعة البريطانية أول استعمال لها إلى المؤرخ الأغريقى بوليبوس (المتوفى سنة ١١٨ ق.م.)، و قد أطلق هذه التسمية على كتاباته لتعنى آنذاك تعميم "الفائدة" العملية، و لتكون منبراً تعليمياً، و قد استخدمت في اللاتينية "pragmaticus"، و اشتقت منها اللغة الإنجليزية جميع المفردات التي ترتبط بكلمة practice ، و أهمها "practical" التى خرجت من رحمها الفلسفة البراجماتية "pragmatism" التى انتشرت فى القرن التاسع عشر في أمريكا، و انتقلت منها إلى أوربا و بعض الدول الأخرى.

و يرجع تاريخ المصطلح في العصر الحديث إلى القرن السابع عشر فى مجال الفلسفة التجريبية، و استخدمه الفيلسوف إيمانويل كانت، و أخذه عنه تشارلز بيرس رائد علمى العلامات و البراجماتية اللسانية، و نقله إلى الدراسات اللسانية، و قد تأثر المصطلح في كنف هذه الفلسفة في القرن العشرين، و قد استقر في اللسان على لفظ "pragmatics" في المصطلح الحديث، و بعض العلماء جعلوا مصطلح "pragmatism" خاصاً بحقل الفلسفة العملية أو النفعية، و جعلوا"pragmatics" لعلم اللسان التداولي، و قد استخدم اللسانى جورج يول (George Yule) مصطلح "Pragmatics" فى الحقل اللسانى، و جعله عنوان كتابه، و قد ترجمه دنحا طوبيا كوركيس إلى "الفائداتية" فى صدر الستينات، و هو أدق تعبيراً من التداولية، و لفظه القياسى الفوائدية، و يرجع تاريخ دخوله إلى العربية في الفترة التى ترجمت فيها الفلسفة البراجماتية في النصف الأول من القرن العشرين، و قد نشأ المصطلح فى كنف الفلسفة التقليدية، ثم انتقل إلى الفلسفة الحديثة على أيدى شارل سندريس بيرس و وليام جيمس، ثم انتقل إلى اللسانيات فى أعمال بيرس وشارل موريس، و قد طوره فى اللسان أوستين وسيريل و كارناب و لودفيج فتجنشتاين. ارجع إلى:المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة ، تونس ١٩٨٩م،ص١١١، والتداولية اليوم،علم جديد فى التواصل،آن روبول و جاك موشلار،ترجمة سيف الدين دغفوس و محمد الشيبانى، المنظمة العربية

و البراجماتية اللسانية مذهب غربي حديث في البحث اللغوي تأثر بالفلسفة الواقعية المادية و الوضعية التجريبية في بحث أعيان الأشياء و ما يتعلق بها، و هدفه القصد اللغوي، و قد تأثر البحث فيه بمناخ صراع التيارات الفلسفية و الدراسات اللغوية الغربية التي تفاعلت معه[§§].

و قد ترجم المصطح الفلسفي (Pragmatism) بالذرائعية، و هي ترجمة غير دقيقة، فالذريعة السبب الناتج عن مقدمات مشروعة، و البراجماتية وجودية مطلقة تستهدف المنفعة و الغاية، و قد انتقل هذا المذهب إلى الدراسات اللغوية و البلاغية العربية، و قد اختار المترجمون (Pragmatics) أي: (علم اللسان البراجماتي)، و هو الذي استخدمه الفيلسوف تشارلز موريس، و قد عده فرعاً من السيمائية (Semiotics) التي تعالج العلاقة بين العلامات و مستعمليها، و استخدمه تلميذه شارل موريس، و قد طوره فى اللسان رودولف كارناب الفيلسوف الألماني الوضعي و لودفيج فتجنشتاين و أوزفالد ديكرو و جون لانجشاو أوستين . صاحب "نظرية الأفعال الإنجازية" التي استخلصها من رحم البراجماتية . و تلميذه جون سيريل، و آخرون، و قد انطلقوا من فكرة تحقيق المعنى معيار التحقق من المعنى من الواقع الحسي، و رفضوا الأقوال التي لا يمكن التحقق منها بالإدراك الحسي أو بالتجربة و الدليل و البرهان منطلقين من الفلسفة الوضعية.

للترجمة، بيروت،٢٠٠٣م،ص٢٧، ٢٨، وعلم النص، مدخل متداخل الاختصاصات،فان دايك، ترجمة الدكتور سعيد بحيرى، دار القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م، ص٤١٥.

§§) ارجع إلى: البراجماتية اللسانية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة، ص٣: ١٠

و ترجع جذور المذهب البراجماتي إلى الفلسفة البراجماتية الواقعية (Pragmatism)[***] التي اجتاحتها الجوانب الفلسفية و المنطقية و تأثرت بالعلوم الطبيعية و التجريبية و تفاعلت مع بعض العلوم الإنسانية (اللغة و الاجتماع و النفس و الاتصال)، و قد تولد عن هذا اتجاهات استطاعت أن تؤلف بين مزيج من الدراسات اللسانية التقليدية و العلوم التى تأثرت بها البراجماتية، فتداخلت فيها فروع المعرفة، و صبت فيها روافد متنوعه، فتنوع أسلوب المعالجة البحثية فيها، و تنازعتها العلوم، فظهرت موضوعات بحثية في حقول معرفية تنتسب إليها، و الجامع بينها أنها تتجه نحو القصد و رد الفعل و الناتج و الأثر العملي، و من ثم تختلف أدواتها و مفاهيمها باختلاف المنحى العلمى، و هي في اللسان تستهدف الاستعمال اللغوي و مقاصده و آثارها في العالم، و هذا التداخل و التنوع سببان رئيسان فى عدم وضوح مذاهبها التحليلية و معاييرها البحثية، فهى تتسع لمجالات البحث و التحليل، و مازال العمل فى تطويرها و معالجة قضاياها مستمرين.

و قد ذكر بعض الباحثين أن الفيلسوف و المنطقى و الرياضى تشارلز ساندر بيرس (Charles Sanders Peirce) (١٨٣٩: ١٩١٤م) أول من

[***]) الفلسفة الواقعية أو الوضعية (Positivism) إحدى فلسفات العلوم التي ترى أن مجال العلوم الاجتماعية هو مجال العلوم الطبيعية، فالمعرفة الحقيقية معرفة العالم المادي والبيانات المستمدة من التجربة الحسية و المعالجات المنطقية والرياضية لهذه البيانات التي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية و خصائصها و تفاعلها. و قد مرت بثلاث مراحل عند أوجست كومت الفرنسي الاجتماعي (Auguste Comte) (ت ١٨٥٧م): أولها ـ المرحلة اللاهوتية. و الثانية ـ المرحلة الميتافيزيقية. الثالثة ـ المرحلة الوضعية أو العلمية، و هي الأخيرة التي عرفت بالوضعية التجريبية و المنطقية.

استخدم البراجماتية (Pragmatics)، و الصواب أن "بيرس" عرف مصطلح البراجماتية من دراسة أعمال الفلاسفة التجريبيين[†††] و الفيلسوف الألمانى "إيمانويل كانت" (Immanuel Kant) (١٧٢٤: ١٨٠٤)[‡‡‡] الذى جمع

[†††]) ظهر المنهج التجريبى عقب الصراع العلمى مع سلطة الكنيسة ومقاومتها التجديد و الابتكار، و أبرز رواد التجريبية الحديثة: روجر باكون (Bacon Roger)(١٢١٣:١٢٩٤م)، و جون لوك (١٦٣٢ : ١٧٠٤م) الذى رأى أن وجود الأشياء فى العقل سبقه وجود فى الحس، ودافيد هيوم وكلود برنار الذى رأى أن التجريب أساس معرفة حقيقة الأشياء، واهتم بالجانب العملى.

[‡‡‡]) الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانت (Immanuel Kant)(١٧٢٤-١٨٠٤م) أشهر فلاسفة القرن الثامن عشر، و هو القرن الذي تطورت فيه الفلسفة و شغلت الحياة العامة، و قد انقسمت إلى اتجاهات، و قد نشأ جدال بينها فى نظرية المعرفة (الأبستمولوجى) فى القرن السابع عشر حتى التاسع عشر، و قد ظهر تياران رئيسان، يرى أولهما أن العقل (Reason) مصدر المعرفة، و أنه منتج الأفكار، و رأى الآخر أن الحواس (Sense) مصدر الإدراك الحسى (Perception)، و أشهر الرواد العقلانيين (Rationalists) رينيه ديكارت الفرنسى (René Descartes، و الألمانيان "باروخ سبينوزا" (Spinoza Baruch) و "جوتفريد فيلهلم ليبنيز"(Leibniz Gottfried Wilhelm)، و قد رأوا أن العقل مصدر المعرفة و أن الاختبار الأساسى لها الاستدلال العقلي القائم على مبادئ الاستنتاج الذاتى أو البديهيات (Axioms) ، و أشهر الرواد المؤيدين للإدراك الحسى للمعرفة من التجريبيين الأمبريقيين (Empiricists) الإنجليزيان "فرانسيس باكون" (Francis Bacon) و"جون لوك" (John Locke) ، و قد ذهبا إلى أن المصدر الرئيس لإدراك المعرفة الحواس، و قد وضع باكون قواعد جديدة للمنهج العلمى، و أبرزها سلسلة قواعد المنطق الاستقرائى(Inductive logic) كقاعدة لتوليد المعرفة، و رفض رأى العقلانيين الذين رأوا أن إدراك عناصر المعرفة ذاتى الوجود.

و قد تبنى إيمانويل كانت اتجاهاً وسطاً توفيقياً بين العقلانيين و التجريبيين، فدمج العناصر العقلية بالتجريبية، إذ وافق العقلانيين على إمكانية الوصول إلى معرفة دقيقة ثابتة، و أقر أيضاً وجهة النظر التجريبية الإمبريقية التى ترى أن المعرفة إخبارية (Informative) عن بنية التفكير ذاته أكثر من قيامها بتعريف العالم الطبيعي خارج نطاق التفكير، و ميزت بين ثلاثة أنواع من المعرفة: أولها ـ المعرفة القبلية التحليلية (Analytical priori)، و تتميز بالدقة و الثبات إلا أنها غير كافية للتعليم (Uninformative)؛ لأنها لا توضح إلا ما يتضمنه التعريف (Definition). و ثانيها ـ المعرفة البعدية المُنتجة (Synthetic posteriori)، و هى التى تُنتج معلومات عن العالم الخارجى نتيجة التعلم من الخبرات ، و هى عرضة للوقوع في الخطأ؛ لاعتمادها على الحواس. و ثالثها ـ المعرفة القبلية المُنتجة (Synthetic priori)، و هى تنتج عن الحدس الخالص (Pure intuition)، و تتميز بالدقة و الثبات؛ لأنها تعبر عن الحالات

بين معطيات المنهج العقلى و المنهج التجريبى، و هو يميز بين البراجماتى "pragmatic" و العملى "practical" [§§§]، و قد كان المصطلح مستخدماً قبله فى الفلسفة الواقعية، و قد ذكره بيرس فى مراجعاته آراء الفلاسفة، و هذا لا ينفى أنه أول من استخدام (Pragmatics) فى علم اللسان، و هو يتناول علاقة العلامة أو الرمز بالمدلول أو بالشيء أو موضوعات العالم، و قد رأى أن السيميائية تعالج العلاقة بين العلامات و مستعملي هذه العلامات، فالثابت أن بيرس مؤسس "علم العلامات" (أو علم الإشارة، أو علم السيمياء)[****]، و قد تأثر فيه بالبراجماتية، فعرف بـ "علم العلامات

الأساسية التى تنطبع على العقل نتيجة الخبرة بالأشياء، و رأى كانت أن هذا النوع من المعرفة تنتجه الفلسفة و الرياضيات، و قيل إن جورج بيركلى (George Berkeley) البريطانى - الإيرلندى (١٦٨٥: ١٧٥٣م) طرح بعض الأفكار البراجماتية بما اطلع عليه من فلسفة لوك التى خالفه فيها متأثراً بآراء الكنيسة فى العالم، و قد رأى أنه لا يوجد شيء اسمه مادة على الإطلاق، و أن ما يراه البشر و يعدونه عالمهم المادى لا يعدو أن يكون مجرد فكرة فى عقل الله.

[§§§]) العملى عند كانت ينطبق على القوانين الأخلاقية، و البراجماتى ينطبق على قواعد الفن و أسلوب التناول اللذين يعتمدان على الخبرة. البرجماتية اللسانية، محمود عكاشة، ص ١٠

[****]) مصطلح علم العلامة أو الإشارة (أو السيمياء) "Semiotics"، و هما من اللفظة الإغريقية "Semion"، و تعنى: الإشارة أو العلامة، و هنالك اختلاف فى دلالة المصطلح، فبعض العلماء استخدمه بمعنى علم الدلالة الذى يتناول كل الرموز الدلالية أو الدلائل أو العلامات في قلب الحياة الاجتماعية (الألفاظ و العلامات غير اللفظية)، و المشهور أنه يعنى الرموز اللغوية فقط، و استخدم مصطلح السيميوطيقا (Sémiotique) للدلالة على الإشارات أو العلامات، و استخدم فى الاصطلاح العربى الحديث العلامات أو الإشارات، و هو جائز لمفهوم الاصطلاح بيد أنى أميل إلى لفظ "العلامات"؛ لمجيئه فى القرآن الكريم بهذا المعنى: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)[النحل:١٦]، و بعضهم يستخدم: السيمياء أو السيميائية، و هو من سوم، و ليس من وسم، و قد ورد فى لسان العرب: السُّومَة و السِّيمة و السِّيماء و السِّيمياء: العلامة، و سَوَّمَ الفرسَ: جعل عليه السِّيمة، و سمة بمعنى علامة بيد أنها من وسم مثل صلة من وصل خلاف اسم من سمو على الراجح، و جمع سمة سمات مثل صلات، و قد شابه اللفظ الإغريقى القديم (Semion) اللفظ العربى فى اللفظ و المعنى، و لعله من الكلمات الأصيلة التى تداولتها اللغات القديمة، و يعنى مصطلح "العلامات": نظام السمة أو الشبكة من العلاقات النظمية

البراجماتى" (pragmatic semiotics, pragmatique sémiotique)[††††]، و قد حملت العلامة عنده طابعاً شمولياً متغيراً، و قد عدها كياناً ثلاثياً تتفاعل داخله العناصر التركيبية و الدلالية و البراجماتية فى إطار حركة دائمة تسمى "السيميوزيس"(Semiosis)، و قد طوره الفيلسوف الأمريكى تشالز موريس (Charles Morris)[‡‡‡‡]؛ فجعله علماً عاماً، و استحدث رموز بعض الأشياء، و وضع نظام الشفرة، و قد استخدم المصطلح البراجماتى بمفهومه الاصطلاحى الخاص فى الدراسات اللسانية فى حديثه عن علاقة العلامات بمؤوليها فى كتابه "أسس نظرية العلامات" الذى نُشر عام ١٩٣٨م[§§§§].

المتسلسلة وفق قواعد لغوية متفق عليها في بيئة معينة، و علم العلامة عند بيرس يشمل العلوم الإنسانية و الطبيعية، قال: "ليس باستطاعتى أن أدرس أى شىء فى هذا الكون كالرياضيات، و الأخلاق.. و علم النفس، و علم الصوتيات، و علم الاقتصاد.. إلا على أنه نظام سيميولوجى".

[††††]) لقد استفادت التداولية من علوم : اللسان و السيمياء و المنطق والفلسفة و علم النفس المعرفى و علم الاجتماع وعلم الاتصال، و قد تأثرت فروعها بهذه العلوم، فـ "أفعال الكلام" مفهوم تداولى منبثق من مناخ فلسفى عام، و هو تيار "الفلسفة التحليلة" بما احتوته من مناهج و تيارات و قضايا، و مفهوم "نظرية المحادثة " انبثق من فلسفة "بول جرايس Grice"، و"نظرية الملاءمة "، و لدت من رحم علم النفس المعرفى، و تعد الفلسفة أكثر تأثيراً فى التداولية من الفروع الأخرى، و روادها الأوائل فلاسفة، و أشهرهم أوستن و سيرل و جرايس .ارجع إلى: مقدمة فى علمى الدلالة و التخاطب، محمد يونس على، دار الكتاب الجديد، ط٢٠٠٧م، ص١٣

[‡‡‡‡]) ارجع إلى: charles senders Peirce: Ecrits sur le signe. Ed. Seuil, Paris,1978,p.32

[§§§§]) ارجع إلى: المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص٢٦، وارجع إلى: الاتجاه التداولى فى البحث اللغوى المعاصر، الدكتور محمود نحلة، ضمن الكتاب الخاص بعيد ميلاد الدكتور عثمان موافى الستين،"فى اللغة و الأدب" دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ص١٦٧

Morris .C.W (1938) foundations of the theory of singns,chicago university Press , Chicago

وقد ظهرت البرجماتية اللسانية نتيجة أبحاث فلسفة اللغة و المنطق الرمزى التى قدمها أقطاب مدرسة فيينا: جلوتوب فريجه (G.Frege) و رودولف كارناب (R.Carnap) و برتراند راسل (B.Russel) و لودفيج فيتجينشتاين (L.Wittgenstein) و غيرهم حول الدلالة و العلاقات الكلامية و المعنى و المرجع و السياق، و صارت هذه الأبحاث أرضية خصبة لانطلاق نظرية لسانية تفاعلت مع مفاهيم بيرسو تشارل موريس (Ch.Morris)، فظهرت معالم المذهب اللساني.

و قد عرفت البراجماتية اللسانية بعلم السياق، و هو أربعة: أولها . السياق الظرفي. والثاني . السياق الوضعي الذي يتوافق مع المحيط الثقافي للخطاب. والثالث . السياق التفاعلي في التواصل، و هو يحدد نوع التواصل وعناصره. و الرابع . السياق المعرفي(الخلفيات و المراجع و العادات و الأعراف بين المتواصلين).

ولقد صارت فرعاً من اللسانيات الحديثة يدرس ما يتعلق بالتواصل اللغوي في السياق و المقام باعتبارهما شرطين أساسيين في الكيفية التي يحصل بها التواصل و إنتاج الدلالة بين مستعملي اللغة في ضوء علاقاتهم التخاطبية تعبيراً و توجيهاً، حيث إن التواصل اللغوي لا يستند فقط إلى الكفاءة اللغوية، بل إلى توفر الشروط غير اللغوية التي تتدخل في تحديد الأداء اللغوي.

و موضوع البحث فيها: دراسة استعمال اللغة و دلالتها في ضوء العلاقة بين مستعمليها و أفعال الكلام و الاقتضاء و الاستلزام التخاطبي، و ذلك بالاشتراك مع مجالات فلسفة اللغة و منطق الحجاج و تحليل الخطاب، و تدرس البراجماتية أيضاً رد الفعل أو الأثر، أو ما تحدثه اللغة و ما يترتب على الفعل اللغوي(*****)، و هو الجانب الذي تتداخل فيه البراجماتية مع نظرية "أحداث الكلام" التي سيأتي الحديث عنها.

و قد اختلف الباحثون في تحديد مجالات البحث فيها، فقد رأى "جرين" (Green) (١٩٨٩م) و "بليكومور"(Blikmore) (١٩٩٠م) أنها تهتم بدراسة اللغة الطبيعية أو لغة الخطاب اليومى المباشر، و رأى "أ.م. ديلر" و "ف. ريكاناتى" أنها تدرس استعمال اللغة فى الخطاب و الكشف عن المقدرة الخطابية(†††††)، و أنها تدرس معانى القول فى المقامات التخاطبية (‡‡‡‡)، فهى تهتم باللغة فى مقام الخطاب، و تدرس السمات الخاصة به قصد تأكيد طابعه التخاطبى، فهي تعنى بدراسة استخدام اللغة فى الخطاب و معرفة السمات المميزة التى تؤسس وجهته الخطابية فى صلب اللغة، و رأى "فرانسواز ريكاناتى "أن البراجماتية فرع من استعمال اللغة فى الخطاب(§§§§§)، و عدها "فان جاك" تخصصاً يتناول اللغة على أنها ظاهرة

*****) لقد تناولت المذهب البراجماتي (التداولي) في كتبي البراجماتية اللسانية و علم اللسان العربي و تحليل الخطاب و مناهج البحث العلمي و مذاهبه.

†††††) المقاربة التداولية، أرمينكو، ص٨. و ارجع إلى: التداولية عند العلماء العرب ، د. مسعود صحراوى ، دار الطليعة للطباعة، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥ ، ص ١٨

‡‡‡‡‡) مقدمة في علمي الدلالة و التخاطب، يونس، ص١٣

§§§§§) ارجع إلى: المذاهب الفكرية المعاصرة ، سماح رافع ، دار المعارف ، القاهرة ، د ت ، ص ٤٩ ـ ٥٢ . و التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوى، ص٥٠.

خطابية و تبليغية و اجتماعية، و عد دراسة استعمال اللغة من مقدمة البراجماتية، و هو ما أكده "فارسشيرن" (Werschueeren) (١٩٨٧م) الذى رأى أن البراجماتية يجب أن تضع دراسة استعمال اللغة بكل جوانبه فى مقدمة بحثها(******)، و رأى "رودوف كارناب " أن البراجماتية قاعدة اللسانيات (††††††).

و يتبين من هذه الآراء أن البراجماتية لم تكتف بدراسة اللغة لذاتها كما فعلت البنيوية، بل تجاوزتها إلى دراسة "استعمال اللغة"، و استدعت عناصر أخرى مرتبطة بهذا الاستعمال و تابعة له، و هى: المتكلم و المتلقى و الكلام و اللفظ و المقام و التواصل و الغرض، و تدرس علاقة النشاط اللغوى بمستعمليه و أساليب استخدام العلامات اللغوية فى "الخطاب"، و السياقات والأنماط المقامية المختلفة التى ينجز ضمنها، و تبحث عوامل نجاح التواصل فيه، و تدرس استعمال اللغة فى الخطاب و توظيفها فى الأنماط التفاعلية و كيفية استخدام الناس الأدلة اللغوية فى خطاباتهم، و كيفية تأويلها، و العلاقة بين مستخدمى اللغة (المتكلم و المتلقى) و علاقتهما بالسياق التواصلى، و العلاقات التأثرية بينهما فى ضوء ما ينتجانه من حوار، فبعض الأشكال اللسانية لا يتحدد معناها إلا من خلال استعمالها ومعرفة القصد منها؛ و من ثم تدرس البراجماتية اللغة الخَطابية و

******) التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ص٤١

††††††) البراجماتية "La pragmatique"، فان. ف. جاك، ضمن الموسوعة العالمية، المدونة رقم١٥/١٩٨٥م.

التواصلية(‡‡‡‡‡‡)، و تعنى بفهم مستعملى اللغة هذه الأنماط الخطابية، و تهتم بمنشئ الكلام (الخطيب، المتكلم) و السياق اللغوى و المقام الخارجى، فهي تتجاوز البنية الخطابية السطحية إلى تقنية التواصل و السياق و القصد، و تدرس كيفية إنتاج المتكلم فعلاً تواصلياً أو فعلاً كلامياً فى إطار موقف كلامى محدد و فهمه أو تفسيره، و هنا يتجلى دور نظرية الاتصال فى دراسة طرفى التواصل و قناته و سياقه اللغوي و مقامه، فتتداخل معها في هذه العناصر المساعدة.

و تتجاوز البراجماتية حيز الوضع الأصلى المباشر فى بعض السياقات التى لا يقصد فيها المتكلم الدلالة المباشرة من الكلام، و تستهدف المعنى المقامى غير المباشر، و هذه المعانى لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة فى مقام الاستعمال الذى يحدد قصد المتكلمين، فالوضع اللغوى وحده لا يكفى لمعرفة هذا المعنى المقامي(§§§§§§)، فبعض المعانى الثانوية

---

‡‡‡‡‡‡) ارجع إلى: التداولية عند العلماء العرب، ص٢٠، و التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار اللاذقية، ص٤١. و مقدمة فى علمى الدلالة و التخاطب، محمد محمد يونس على، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص١٣، و المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومى، بيروت، ص٢٦، و علم التخاطب الإسلامى، محمد محمد يونس على، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص ١٤.

§§§§§§)الوضع اللغوى أصل وضع اللفظ المصطلح عليه، و يسمى المعنى المعجمى و الحرفى و السطحى، و الصواب معنى اللفظ العام، و المعنى السياقى الذى يرتبط بالسياق الخارجى ، و يفهم فى ضوء علاقة المتكلم بالمتلقى وعلاقتهما بموضوع الحدث، مثل عبارة: السلام عليكم، المعنى الأصلى: التحية، و بعض المترجمين غير الواعين بالتعبير العربى،يسمون هذه المعنى المباشر من السياق اللغوى المعنى السطحى و الدلالة السطحية، و ليس بمعنى سطحى فى العربية بل أصلى، و يرتبط به المعنى المجازى أو الثانوى، أو معنى المعنى، وهذه العبارة قد تؤدى معانى أخرى ترتبط بالسياق الخارجى، مثل: الوداع و الاستئذان و التهكم والاستحسان، وهى معانى يكتسبها التعبير من طبيعة السياق الخارجى و ثقافة المجتمع والعلاقة بين طرفى الاتصال، و يبقى معنى السياق اللغوى الأصل، وإطلاق المعنى الحرفى عليه غير صحيح، فالمعنى الحرفى يجافى معنى السياق اللغوى الذى يرتبط بعلاقة الكلمة بما

للتعبير كالسخرية و الاستنكار و المدح و الذم تستفاد من علاقة الخطاب و المتكلم بالمقام الخارجى(*******)، و تدرس كذلك الأساليب الأدبية الخاصة التى يوظفها الكاتب فى عمله الإبداعى و وجوه تأويلها و القصد منها.

و تقوم البراجماتية على ثلاثة عناصر:

أولهما . العنصر الذاتي الذي يتمثل في التعبير عن معتقدات المتكلم و مقاصده و اهتماماته و رغباته.

والثاني . العنصر الموضوعي الذي يتمثل في الوقائع الخارجية، و منها الظروف الزمانية و المكانية.

والثالث . العنصر الذي يدل على المعرفة المشتركة بين المتكلم و المخاطب.

وهذه العناصر تفسر الأقوال المستعملة بمساعدة المحيط الخارجي الذي تم فيه الخطاب الصادر من المتكلم.

وقد ميزت البراجماتية اللسانية بين معنيين فى التعبير اللفظى (الفعل التواصلى اللفظى): الأول . معنى الجملة الإخبارى. و الآخر . القصد التواصلى أو غرض المتكلم، و هذا من خلال العناية بآثار الاستعمال و أثر السياقات المختلفة فى المعنى، و هو موضوع البراجماتية اللسانية، و يتبين

جاورها فى التركيب و وظيفتها فيه، فكلمة "السلام" يختلف معناها باختلاف السياق اللغوى مثل: السلام عليكم، السلام بين الشعوب،(لهم دار السلام)، مبادرة السلام (المصالحة)، مدينة السلام من أحياء القاهرة.

*******) مثال هذا قوله تعالى:(إنك لأنت الحليم االرشيد) [هود : ٨٧] أى:عند نفسك بزعمك، و مثله في صفة أبى جهل: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) [الدخان: ٤٩] أى: عند نفسك بزعمك، لا يراد ظاهر معناه المباشر بل معنى سياقى فى ضوء العلاقة بين المتكلمين و المخاطب، وهو معنى السخرية، و هذا من المفارقات فالمراد خلاف المعنى المباشر.

من هذا الفرق بين موضوع البحث فيها و موضوع البحث فى علم الدلالة الذى يبحث فى المعنى اللفظى.

القصد في البراجماتية:

يعد القصد الواقعي المستفاد من استعمال اللغة هدف البراجماتية الرئيس، و هو فى مقدمة بحثها أيضاً لتأثرها بالفلسفة العملية التى تستهدف الفائدة، وهذا يفهم من تحليل ما يقصده المتكلمون من خلال ما يستخدمونه من تعابير فى سياقها اللغوي و مقامها، فالمقصود دراسة المعنى الذى يتضمن قصد المتكلم، و ليس المعنى التركيبى(النصى) و معانيه الوضعية و التركيبية، و تعنى البرجماتية باستنباط ما يقصده المتكلمون من وراء أقوالهم فى مقاماتها، و بحثت أثر المقام فيما يقال في ضوء معرفة أحوال الأشخاص الذين يخاطبونهم و مكان الخطاب و زمانه و ظروف إنتاجه، و لهذا تتداخل مع علم اللغة الاجتماعي في تبيين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث و موضوعه و مرتبة كل من المتكلم و السامع و نوعهما، و أثر السياق غير اللغوي في اختيار السمات اللغوية و تنوعاتها، و تتداخل مع علم اللغة النفسي الذي يبحث قدرات المشاركين التي تؤثر في أدائهم مثل: الانتباه و الذاكرة و الشخصية، و تتداخل مع تحليل الخطاب تداخلاً عميقاً في الاهتمام بتحليل الحوار و في توزع المعلومات في جمل أو نصوص ، و في العناصر الإشارية، و المبادئ الحوارية، و هي العوامل الموصلة إلى فهم القصد.

و لقد بدأ بحث القصد فى العصور الوسطى بيد أنه كان ذا طابع فلسفى، و يراد به الفعل الذى يتجه فيه العقل إلى الموضوع ليدركه، و قد اهتم الباحثون بالظواهرية اللغوية (Phenomenal language) لمعرفة القصد، و قد رأى فرانز برنتانو (Franz Brentano) (١٨٣٨ : ١٩١٧م) أنه يحتاج مزيد بحث، فأقنع تلميذه إدموند هوسرل (١٨٥٦- ١٩٣٨م) ببحثه بحثاً جديداً بعد أن أصبح القصد هدف البرجماتية الرئيس، فطوره فى نظريته الفينومنولوجية(†††††††)، و قد رأى أن القصد يتحقق من

---

†††††††) ألفينومينولوجيا (Phenomenologie) : لفظ أصله لاتينى، و ترجمته "علم الظواهر، و يجوز: "الظواهرية"، و لا أقول الظاهرية؛ لئلا تلتبس بمذهب ابن حزم إمام الظاهرية، ولها ترجمات أخرى منها: " الظاهراتية "، و هو شاذ لغة، فجمع الظاهر ظواهر، و استخدم اللفظ الدخيل "الفينو مينو لوجيا"، و يقصد به: العلم الذى يكتفى بدراسة الظواهر الواضحة فى الشعور دراسة وصفية مع تحليل الشعور و كشـــف حقيقة أفعال "الإدراك و مكوناتها"، و ترجع جذوره إلى فلسفة توما الأكوينى (١٢٢٥: ١٢٧٤م) الذى تأثر بفقهاء الأندلس و فلاسفتها، و قد تناول مفهومه فى كتابه "حول الوجود و الماهية"، و قد رأى فيه أن وجود الشىء خارج العقل يختلف عن وجوده داخل العقل، و استخدمه اللاهوتى الألمانى فردريك أويتنجر (١٧٠٢: ١٧٨٢م) فى وصف النظام الإلهى للعلاقات بين ما هو إلهى و ما هو إنسانى؛ للتعبير عن القدرة الإلهية، و استخدمه الفيلسوف الألمانى لامبرت (١٧٢٨- ١٧٧٧م) فى وصف المعطيات المباشرة للتجربة، و استخدمه كانت فى أواخر القرن الثامن عشر، و هو يفرق بين ظاهر الشىء و باطنه، و ميز بين المعرفة البشرية و بين الشىء فى ذاته، فرأى أن المعرفة البشرية تقتصر على الظاهر دون الشىء فى ذاته، و قد شاع المصطلح فى القرن الثامن عشر للدلالة على المظاهر الجوهرية للمعرفة التجريبية و خصوصاً المعطيات الحسية، و استخدمه بعد ذلك "هيجل" فى أوائل القرن التاسع عشر، و أطلقه على "علم ظواهر الروح" الذى تبنى فيه رؤية مثالية فى وصف تجليات الروح عبر التاريخ (المؤسسات الدينية و الاجتماعية و السياسية)، و سجل هذا فى كتابه "ظواهر الروح" الصادر عام ١٨٠٧م، و استخدمه عالم النفس النمساوى فرانز برنتانو (١٨٣٧-١٩١٧م)، و ورأى أنه فى حاجة إلى بحث، فنصح تلميذه الألمانى أدموند هوسرل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨)، فدرسه و توسع فيه، و جعله اسم فلسفته التى تبناها فى أوائل القـــرن العشرين، و اقترن" فينو مينو لوجيا "به لشهرته فى هذا المجال، وقد اقتفت هذه الفلسفة فى بدء ظهورها خطوات التحليل الرياضى والوصف العلمى، و لكنها انحرفت عن هذا متأثراً بالفكر التقليدى، ولكن هوسرل استطاع أن يحول

خاصية الشعور الحقيقى الذى يتجه نحو شىء، و لا يستطيع أن يفصح عن نفسه إلا بعد أن يكون مقصده شيئاً محسوساً، فيستخلص معناه من الواقع، و يعبر عنه بكلام ذى دلالة دقيقة، فالقصد عنده سابق الكلام(‡‡‡‡‡‡)، و قد تأثر هوسرل فى تعيين القصد بـ "برنتانو" الذى وضع "علم النفس القصدى"(§§§§§§)، و قد درسه هوسرل على يديه و تأثر به، و قد رأى

الفلسفه من مجرد مذاهب نظريـــــــة متناقضة و أبنية ميتافيزيقية خاوية إلى علم يقينى دقيق يوصـــل إلى حقائق يقينية تكون أساساً لكل العلوم الأخرى الممكنه، و ذلك مثلما أراد "كانت" من قبل تأسيس الميتافيزيقيا علماً صحيـــحاً مستقلاً، و حدد هوسرل منهجاً جديداً للعلم الجديد "الفينو مينو لوجيا" يتفق مع طبيعته وأهدافه، و يجمع بين التحليل الرياضى و الوصف العلمى برؤية جديدة. ارجع إلى: نظرية القيم فى الفكر المعاصر بين النسبية و المطلقية، ميمون ربيع، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م، ص١٣١

‡‡‡‡‡‡) القصد: الهدف المضمر القائم - فى رؤية هوسرل - على وعى المتكلم و العالم الخارجى معاً، و يعد برنتانو أول من قدم فكرة القصد بمفهومها الفلسفى الحديث، و قد رأى أنها تحتاج بحثاً، فنصح تلميذه هوسرل بمواصلة بحثه فيها، فقدمها فى شكلها النظرى الأخير، فاستطاع أن يختار منهجاً وسطاً بين المادية و المثالية، فعرف اتجاهه بالاتجاه المحايد، و قد ركز هوسرل فى العملية المعرفية على القصد باعتباره موجه عملية الإدراك، و جعل هوسرل كل ما هو موجود موضوع التأمل الفينومينولوجى، و رأى أن الوعى الخالص يلازم بالضرورة ماهية الموجود، ذلك أن الموضوع لا يعرف التعالى إلا من خلال وعيه، و هو يستمد معرفته التجربة والوعى الخالص فى ذهن صاحبه، و هذا الوعى الخالص يصبح مطلب الذات العارفة التى تريد أن تصل إلى ماهية الموجود، و يستحضر الوعى الخالص داخل بؤرة الشعور عند هوسرل فى وجود القصد، و هو يتكون عند هوسرل من سلسلة التجارب التى مرت بها الذات العارفة من خلال لحظة فلسفية تحدث نتيجة شعور بموضوع معين، و يتحقق القصد تحت تأثير الرغبة فى معرفة الموضوع، قال هوسرل: "إن الشعور بشىء لا يعنى أن نفرغ الشعور من هذا الشىء بل أن نجعله يتجه إليه حيث إن كل الظواهر لها تكوينها القصدى الذى يوجه الإدراك نحوها تلقائيا". ارجع إلى: كير كارد رائد الوجودية، عبدالفتاح إمام، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٥.

§§§§§§) لقد أقام هوسرل فلسفته على أساس الشعور المجرد، لكونه المجال المحايد للمعرفة اليقينية، و لاتصافه بصفة القصد (Intentionnalite)، و هذه الصفة جوهرية وأساسية فى الفلسفة الظواهرية، فمن خصائص الشعور أنه يتجه إلى الأشياء التى تواجهه من أجل أن يدركها، فيحولها إلى (ظواهر ذات طبيعة ثابتة)، لتكون الأساس الذى تبدأ منه كل معرفة يقينية، و قد استعار هوسرل مصطلح "القصد الشعورى" من أستاذه الفيلسوف عالم النفس النمساوى

برنتانو أن حالات العقل الرئيسة ينبغى أن توصف فى ضوء القصد نحو الأشياء؛ لأن جميع الحالات حالات عن أشياء سواء أكانت حقيقية أم غير حقيقية، و أن حالات العقل المختلفة حالات عن موضوعاتها بأشكال متباينة، و يتعين القصد بضوابط وصفية يعرف بها(*******).

و قد تبنى هوسرل رؤية تقوم على أساس الشعور المجرد؛ لكونه المجال المحايد للمعرفة اليقينية، و لارتباط القصد (Intention) به، و قد رأى أن القصد العنصر الجوهرى و الأساس فى الفلسفة الظواهرية من بين ثلاثة أسس تقوم عليها الظواهرية، و هى: المعنى، و القصد، و الحصر (تحديد الواقع و الوعى الذاتى تجاه الموضوع فى اللحظة التى يتعالى فيها الشعور)(††††††††)، و قد رفض هوسرل التفسير الفينومينولوجى المغالي في

فرانز برنتانو (١٨٣٨ : ١٩١٦م) الذى الذى استخدمه فى كتابه "كشف النفس"، و قد حاول برنتانو وضع تخطيط منطقى للتصورات الذهنية؛ لتكون تمهيداً لعلم النفس التجريبى، و قد فسر هوسرل الوجود على أنه ظاهرة، و قد كان يفسر فى صيغة جوهر ذى محمولات متعددة، فنظر إليه على أنه ظاهرة، و ظاهر الوجود هنا ليس مقابل باطنه المستتر، فالوجود نفسه يمثل هذا الظهور، و لا يتضمن وجوداً آخر خلفه (ما وراء الطبيعة)، و ينبغى دراسته من خلال سلسلة تجلياته التى تظهر لنا.

*******) لقد حدد هوسرل الوصف شروطاً للوصف الصحيح: أولها ـ تحديد الكيفية التى تتم بها عملية إدراك المعنى و ماهية الموضوع من خلال إسقاط الإدراكات التى تتجه إلى ما لا إدراك. و ثانيها ـ اليقين الذى يؤدى إلى إثبات الموضوع على النحو الذى أدركه عليه أو من خلال إدراك الاعتقاد. و ثالثها ـ تحديد معنى الإدراك وماهيته للوصول إلى ماهية الموضوع، و مذهب الفينومينولوجية يقصد التمكين لفكرة الماهية، و وضع ثلاثة شروط لتحديد ماهية الموضوع: الأول ـ تحديد قضية أو حكم يصلح أن يكون موضوع الإدراك. الثانى ـ الشك فى ماهية الموضوع الأولى، و ذلك فى حقيقة صورته و غايته و صدقه. الثالث ـ إعادة بناء الإدراك الجديد، لإثبات صواب الموضوع أو خطئه. وهذه المراحل الثلاث تعطى للتجريد بعداً فينومينولوجيا إذا ما استطاع العقل أن يميز بين المعنى المنطقى و المعنى الفينومينولوجى.

††††††††) الحصر: تحديد الواقع و الوعى الذاتى تجاه الموضوع فى اللحظة التى يتعالى فيها الشعور، و تتبع عملية الحصر إقصاء ما وقع خارج الحصر، و عملية الحصر أو التعالى تقوم

الظواهر دون المعاني و المقاصد و البحث الماهوى و الاختزال، و دعا إلى إقصاء القارئ أحكامه السابقة فى مواجهة موضوع النص؛ لئلا تصرفه عن فهم النص.

و قد بحث هوسرل القصد فى العمل الأدبى، و رأى أن موضوع النص يدرس لذاته مستقلاً عن أحواله و ظواهره دراسة وجودية (Ontology) فى وعى المؤلف، و قد حصل المؤلف موضوعه و الصورة التى تشكلت فى ذهنه عن الواقع و طبيعته و دلالاته المتعددة من خلال الخبرة الحياتية المباشرة، و يتوجه المؤلف عن قصد لإعطاء شكل لذلك الموضوع الوجودي من خلال اللغة و الشكل الفنى للعمل الأدبى، و يعد العمل الأدبى بهذا تجسيداً جمالياً لصورة الحياة فى وعى المؤلف، فالنص الأدبى عنده تجسيد ظواهر العالم على ما تجلت عليه فى وعى المؤلف مخالفاً بهذا مذهب موت المؤلف، و القصد عنده: قصد المؤلف الكامن في وعيه، و يتحقق من

على إقصاء الحكم القبلى أو الجاهز عن الموضوع، و هى الخلفية التى يعكسها على الموضوع. و تحديد ماهية الموضوع(حصر الماهية)، و هذا يتطلب إقصاء الخلفية السابقة و فرضيات النظريات الميتافيزيقية، و هى فى النهاية تجتهد فى التوفيق بين الواقعية و العقلانية المثالية. و قد رفض هوسرل الشك الديكارتى منهجاً لمعرفة ماهية الموضوع، و رأى أن الشك نفسه عملية يصدر من خلالها حكم على الموضوع المقصود فى ذاته، و من ثم لا يمكن أن يحقق معرفة بإصدار حكم على حكم، و المذهب الفينومينولوجى يرفض الأحكام التى لا يتجلى فيها الوعى الخالص، فالإدراك المرتبط بالوعى الخالص و المدعم بالقصد يقوم بالحصر و الإقصاء، فالحكم يكون فى لحظة تجلى الوعى الخالص، و قد أعطى هوسرل للذات العارفة لحظة مثالية لأجل تأمل الموضوع تأملاً وصفياً جوهرياً فى ضوء شروط إدراك الموضوع، و ذلك بربطه بالأحوال النفسية ذات التى تأثر بأحوالها الشعورية، و المنهج الفينومينولوجى لا يهتم بالحكم فى ذاته، بل يهتم بطريقة المتأمل التى توصل بها إلى ماهية الموضوع .ارجع إلى: تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا، بوخينسكى، ترجمة عبد الكريم الوافى، مكتبة الفرجانى، ليبيا، ص ٢١٨

الوحدة الموضوعية التى تضفى الانسجام و الترابط على أجزائه، فالمعنى لا يفهم من محصلة تشابك العلاقات التركيبية و الدلالية للنص، بل يفهم عندما يكون وجوداً منجزاً و متعالياً على الوحدات النصية، و مكانه وعى المؤلف، و علته قصد المؤلف، و يصبح معنى النص: الموضوع الذهنى الذى يحمله المؤلف فى عقله أو يقصده وقت الكتابة حقيقة عندما يتطابق مع عالمه الخارجى أو يواقعه، و يصبح عقل المؤلف الجوهر الموحد لكل عناصر النص و كل مستوياته الدلالية و الأسلوبية و البلاغية و الشعرية(‡‡‡‡‡‡‡).

و تتحقق القراءة الصحيحة عنده بإعادة القارئ تشكيل التجربة الشعورية للمؤلف التى يكشف عنها النص، و يشترط لها تعليق جميع الأحكام السابقة و الافتراضات القبلية عند القارئ و التقييم و تصنيف الأفكار؛ لئلا تحجبه عن مقاصد المؤلف، و أن يحاول القارئ أن يفهم النص من خلال معطياته من أجل تحقيق فهم موضوعى للمعنى النصى الذى يتطابق مع قصد مؤلفه، و تتم القراءة هنا من خلال انفتاح الذات على الآخر و محاولة فهمه ذاتاً غيرية، و ليس صورة انعكاسية للذات فقط، و تتحقق هذه المرحلة بافتعال نوع من التواصل بين الذوات فى سياق متعالٍ؛ ليكتشف مركبات الوعى ذاته، و الظواهر نفسها، و تتجلى الروح المتعالية فى فهم القصد

‡‡‡‡‡‡‡) من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفى، الدار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط ١/ ٢٠٠٧م، ص ١٠٤،١٠٥.

عندما يبتعد القارئ عن التجريبية و الروح النفسية (Psychology) التى تفسر الأحداث التاريخية و تتوقف عند العمليات العقلية الخالصة.

و قد درس "أربك دونالد هيرش" الناقد الأمريكي(و: ١٩٢٨م) القصد، و هو من أتباع التيار النفسى (Psychology) فى النقد و القراءة، و هو تيار قام على أفكار شلاير ماخر و دلثاى و هوسرل، و لكن هيرش دافع عن مفهوم إعادة البناء النفسى للتجربة الشعورية للمؤلف هدفاً و غاية للعملية الهرمنيوطيقية (الاستبطانية أو التأويلية)، و رفض مسلمات ما يعرف بـ "النقد الجديد الأمريكى" الذى قام به "ومسات" (W. K. Wimsatt) و "بيردسلى" (Monro Beardsley) حول القصد، و قد أطلقا على دراستهما "المغالطة القصدية" (Intentional Fallacy)، و قد ذهبا إلى أن قصد القائل قد يغيب عن المتلقى، فيخالفه فى التفسير و يرى غيره، و قد خالفهما هيرش، و رأى أن قصد المؤلف يحدد المعنى النصى، و قال: "إن التحقق من النص يعنى الإقرار بأن المؤلف ربما قصد ما نظن أنه هو معنى النص، لا غيره، و تتمثل مهمة المؤول الرئيسة فى أن يعيد هو نفسه إنتاج منطق المؤلف و اتجاهاته و معطياته الثقافية ثانية"(§§§§§§§§).

و قد رأى "هيرش" أن "النص يعنى ما قصده المؤلف"، و أن معناه اللفظى قد يكون واضحاً، و قد يكون غامضاً و يحتمل وجوهاً متعددة، و أن النص

---

§§§§§§§§) الحلقة النقدية، الأدب والتأريخ و الهرمنيوطيقا الفلسفية، ديفيد كوزنز هوى، ترجمة خالدة حامد، منشورات الجمل، كولونيا(ألمانيا)، بغداد ٢٠٠٧م، ص٢٦،٢٧.

يقبل أن يعيد القارئ إنتاجه، و أنه يتضمن قصداً أو معنىً واحداً؛ لأنه الأصل الذى عمد إليه المؤلف، و حاول بلوغه و تقديمه إلينا، و أنه يمكن الاستعانة بالسياق الخارجى؛ لتعيين القصد، و لدفع الاحتمال الذى يفهم من قطع النص عن سياقه، فالرجوع إلى المؤلف أو إلى الوثائق التى تركها حول نصّه أو إلى عصره و الظروف التى أحاطت بنشأة المؤلف و ثقافته يسد باب الاحتمال و القراءات الجديدة، و لا يحقق الوصول إلى المعنى المقصود، و قد خالف هيرش الذين يكتفون بالنص وحده مقطوعاً عن مؤلفه و مقامه فى تحصيل قصد المؤلف، و رأى أن القارئ قد لا يستطيع الوصول إلى المؤلف أو شىء عنه، و قد لا تتوفر لديه الوثائق الكافية لمعرفة مناسبة النصّ، و ليس لديه إلا النص، و هو الحقيقة الثابتة التى يستطيع القارئ دراستها من خلال تركيبه اللغوى و القرائن الموجودة فى داخله، و أن قراءة المتلقي هذا النص المبتور عن عالمه تختلف عن غيره، و بعضها يتعارض فى تفسير نص واحد، و رأى أن هذا التعدد و التعارض دليلا "الفوضى" فى هذا الاتجاه الذى يكتفى فى التفسير بالنص و يعزله عن سياقه، و انتقد التيار المتطرف الذي دعا إلى موت المؤلف (إقصائه عن التفسير، و اكتفاء بمعطيات النص اللفظية)، و قد خالفهم آخرون، ورأوا أن النص هو المؤلف، و لم يتورط المفسرون العرب المتقدمون فى هذا الجدل الفلسفى، فقد عالجوا النصوص معالجة كلية فى ضوء سياقيها اللغوى و مقامها الخارجى و تحري قصد قائليها بالقرائن المصلة إليه، فهي تعبير عن أغراض قائليها.

و قد ذهب مارتن هايدجر(Martin Heidegger) الفيلسوف الألماني (١٨٨٩: ١٩٧٦م) إلى أن ما قبل الإدراك الانعكاسى و المعرفة السابقة ضروريان فى عملية الفهم، و قد تبنى دمج فعل التفسير بفلسفة ظواهرية وجودية تركز على الوجود أو ما هو كائن فى هذا العالم، و ربط عملية الفهم بنوع من الحركة الدائرية المتواصلة بين الفهم و المعرفة القبلية (الإدراك الانعكاسى)، و هو الوعى بالشىء كما هو معطى للوعى، فمعرفتنا بالموضوع لا يمكن أن تتشكل معزولة عن خبرتنا الحياتية و طبيعة وجودنا التاريخى و معرفتنا القبلية، و أن الوعى يتحرك بدينامية بين ما يعرفه مسبقاً و بين ما يعرفه من دلالات و معانى جديدة يطرحها الموضوع المعطى، و يتم هذا ضمن سياق تاريخى له شروطه، و تصبح محصلة هذه الدائرة النقدية التأويلية المعرفة النظرية التي تأتى هنا للكشف و الإنارة، و ليست معرفة المعنى المنجز التام، و قد خالف بهذا هوسرل في رفضه التحول عن معطيات النص إلى معارف قبلية خارجية.

و قد أيّد جدامير مفهوم هايدجر "ما قبل الإدراك الانعكاسى" و أقواله فى التصورات السابقة، فهو يؤكد فى كتابه "فلسفة التأويل" أن هايدجر اقترح وصفاً فينومينولوجيا دقيقاً و صحيحاً عندما كشف عن بنية الاستحضار السابق للفهم على أنها نشاط فعلى و عملى فى القراءة المفترضة لما هو موجود أمام أعيننا(*********).

*********) ارجع إلى: فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، هانز جورج جدامير، ترجمة محمد شوقى الزين، الدار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات الاختلاف والمركز الثقافى

و قد رأى أن الحالة الزمنية المؤقتة(Temporality) و الحالة التاريخية (Historicality) موقف عقلى فى حاضر المرء الذى ينظر إلى الماضى و يستشرف المستقبل) جزء لا يتجزأ من وجود كل كائن فرد، و رأى أنه لكى نفهم شيئاً ما يقتضى أن يتضمن التفسير التجربة الذاتية لمؤلفه، فقراءة النص وحده لا تكفى فى الفهم، و أن اللغة مثلها مثل الزمنية المؤقتة تتخلل كل جوانب التجربة و تشملها، و رأى أن القارئ يعكس على النص فهماً مسبقاً (Pre-Understanding)، و هذا الفهم السابق يتألف و يتشكل فى النص متزامناً مع زمنية القارئ الشخصية و آفاقه، فالمبدع الفاعل(منتج النص) لا ينبغى له أن يحاول تحليل النص، أو أن يقوم بتقطيع أوصاله على أنه مفعول به(متلقياً)، أو لأنه يتعلق بذاته، فهذا عمل القارئ و دوره التفسيرى، فـ "أنا" تخاطب "أنت" القارئ المسئول عن التفسير و الفهم، و يجمع بينهما إرث لغوى مشترك و تفاعل و استجابة، ذلك أن المعنى المفهوم من النص عبارة عن حدث (An event) نتيجة الانصهار و الاندماج بين النص و القارئ، و أنه لا توجد معان ثابتة للنص، و هذه هي القراءة الحرة المنطلقة إلى المستقبل و المنتجة للنص في زمن قراءته، و قد تناولت هذا قبل في المذهب الهرمني، و بينت علل بطلانه علمياً.

العربى، ط ٢، ٢٠٠٦،ص ١٢٥، و فعل القراءة، نظرية جالية التجاوب، فولفغانغ إيرز، ترجمة د. حميد لحمدانى و د. الجلالى الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، ط ١/ ١٩٩٥م، ص١٣، ١٤

و قد حاول جدامير حل مسألة الحلقة التفسيرية عند هايدجر، فلم يركز على الصلة بين الأجزاء و الكل حسبما هو فى التفسير الشليرماخرى، بل على دراسة العلاقات المتبادلة بين ما قبل الإدراك المعرفى و الإدراك الانعكاسى، و رفض الأغراض المنهجية التى تهدف إلى نسف "الحلقة التفسيرية"، و خالف هايدجر الفلاسفة ذوى التوجهات الوضعية الذين طالبوا بنزع المقدمات (ما قبل الإدراك) عن المعرفة؛ للتحرر فى الحكم على النص، و رأوا أنه عملية أساسية و ضرورية و هامة فى المعرفة(††††††††)، و قد رأى جادامير أن القارئ لا يستطيع أن يتخلص من كل خلفياته و تراثه، و لن يستطيع أن ينقى وعيه إلى درجة الصفر، و هو يفسر النص، فلن ينقطع عن تجاربه و معرفته السابقة، و أطلق على هذا "الإدراك الانعكاسى" الذى يعكس فيه على النص خبرته و وعيه، و قد يدفع هذا القارئ إلى أن يتخذ موقفاً من النص، فيفسره وفق سياق خبرته السابقة، و قد رأى أن القراءة تختلف باختلاف التاريخ و المحيط، و أنه يستحيل استرجاع سياق النص التاريخى فى الزمن اللاحق، و يصل من هذا إلى أنه لا توجد قراءة واحدة، أو قصد واحد، و لكن هيرش خالفه، و رأى أنه من الممكن التعرف على قصد المتكلم فى حالة استدعاء ظروف إنتاج النص الحقيقية(‡‡‡‡‡‡‡‡).

---

††††††††)ارجع إلى: التحليل النفسى والفلسفة الغربية المعاصرة، سيجموند فرويد، ترجمة د. زياد الملا، دار الطليعة الجديدة، سوريا، دمشق ط١ ١٩٩٧،ص١٧٧

‡‡‡‡‡‡‡‡) لقد تبنى هانز جورج جادامير تلميذ وليم هيدجرفلسفة أستاذه، وصاغ منها نظرية فى التفسير النصى، و تناول رؤيته فى كتابه "الحقيقة و المنهج" الصادر فى عام ١٩٦٢م، و قد

نقد المذهب البراجماتي:

أ . أن الغالب عليه الفلسفة، و ليس البحث العلمي، و لهذا تنازعته اتجاهات فلسفية، و كل واحدة تدعيه لنفسها.

ب . أنه قسيم حقول معرفية مختلفة، فهو فلسفي و اقتصادي و رياضي و سياسي و لساني و بلاغي و نقدي، و مفتوح للاتجاهات العملية، و ليست هنالك فواصل بينها.

ج . أنه مثار نقد في تنظيره و تطبيقه، فمازال فى مرحلة النضج و التطوير و التنظير و التطبيق، و مازال قابلا الزيادة و التبديل و التصويب.

د . أنه ليس لها منهج واضح أو مجال بحثى محدد، فهو يتداخل مع العلوم التي تفاعل معها و تأثر بها، فهو فلسفة أكثر منه مذهباً بحثياً، فهو لا يمثل مذهباً بحثياً مستقلاً، بل يتنازعه علم اللسان و البلاغة و النقد و

ترجم إلى الإنجليزية فى عام ١٩٧٥م، والهرمنة أو التأويل عند جادامير ليس محاولة لتأسيس معايير للتفسير السليم، بل هو محاولة لوصف الكيفية التى ننجح بها فى فهم النص، و قد رأى أن البحث عن معنى النص الثابت والمحدد قد صار سراباً و وهماً؛ لأن معنى النص يصمم بشكل مشترك من كل من الظروف الآنية المعينة و الأفق الشخصى(personal horizon) للقارئ الفرد، و من ثم لن يكون ممكناً أن يتحقق تفسير صحيح واحد؛ لأنه لا يوجد معنى واحد دائم، فمعناه الآن الذى أراه خاص بى، وهو غير الذى يراه غيرى فى المستقبل، و من ثم توجد فجوة بين معنى النص الآن و بعد حين، فالجانب التاريخ متغير عن الجانب الشخصى للمؤلف فى النص،و كذلك المتلقى، و يتحقق، ويستحيل استرجاع ظروف إنتاج النص؛ ليفهم فهماً يتسق مع رؤية المؤلف، و قد خالفه هيرش، فرأى أن القارئ يمكن أن يفهم قصد االقائل إن استطاع إعادة بناء الشروط اللسانية و الأدبية و الثقافية للمؤلف التى تمكنه من أن يحدد المعنى اللفظى الذى لا يعروه تغيير عما أريد به فى الماضى، وهذه الرؤية تتسق مع ما اصطلح عليه علماء التفسير القرآنى المسلمون الذين اعتبروا السياق اللغوى و المقام الخارجى المتعلق بأسباب النزول فى التفسير، و أن المقاصد لم تختلف عندهم، بل وجوه التفسير. ارجع إلى: تأويل الخطاب الديني بين السلف و الهرامنة، ص ١٥ فما بعدها.

الفلسفة و الرياضيات و علوم أخرى، و يعد هذا التداخل و التنوع سببين رئيسين فى عدم وضوح مذاهبها التحليلية و معاييرها البحثية.

هـ . أنه ليس له معايير تحليلية واضحة يمكن تعميمها في كل بحث، فقد سلك أتباعه مذاهب متنوعة في التحليل منبعثة من رؤيتهم الخاصة و قناعتهم الشخصية بها و تأثرهم بمذاهبهم الفلسفية، و من ثم ليس له معالم واضحة فى التحليل.

و . أنه لا يحظى بمساحة بحثية واسعة فى علم اللسان، فاللسانيون يتعصبون للأصول اللغوية في البحث أكثر من الأفكار البراجماتية التي تتسع لمحاور نظرية و جدلية، بيد أن بعض الدراسات المتأخرة اتجهت إلى تأسيس علم اللسان البراجماتي بمعايير ثابتة؛ و هذا ممتنع؛ لأن البراجماتية فلسفة أو أفكار لا تحتويها المعايير العلمية.

ز . أن بعض باحثي اللسانيات رفضوها في البحث اللساني؛ لأنها تهتم بما هو خارج اللغة أكثر من عنايتها بها، و قد عدها بعض النقاد" صندوق القمامة" للسانيات حيث يرمى فيها كل ما لا يمكن دراسته ضمن مستويات علم اللغة الرئيسة (الأصوات و الصرف و النحو و الدلالة).

ح . أنها تفتقد إلى القواعد العامة و المبادئ التى تعين أسسها، و أن ما تطرحه من مبادئ لا تضع تصوراً دقيقاً للتفسير البراجماتي، و أن الأسس العامة للسياق لا تكفى فى تفسير كل السياقات و أنماط الخطاب.

ي . أنه . عند من يعده فى علم اللسان . أهمل بعض العناصر اللغوية الأساسية، ففقد استبعد العناصر الصوتية و الصرفية و القواعدية من بحثه

لانشغاله بما هو خارج البنية اللغوية، و أنه لم يعالج الأخطاء اللغوية و النحوية، و أنه لم يعتد بالوضع اللغوي للفظ، و اهتم فقط بالمعنى الثانوى، و تجاوز المعنى المباشر للتركيب، و لم يعتمده أساساً فى مقابل توسعه فى الاستعمال اللغوى و علاقة اللغة بالسياق الخارجى و المعانى التى تتحقق من خلاله.

. أنه اختزل اللغة في مقام الاستعمال الواقعي، و قد جعله موضوع بحثه، ولم يهتم بالمعانى الباطنية و أثرها النفسي.

. أنه لم يهتم بالقواعد و دراسة المعنى النحوي و الأسلوبي، و لم يعتد بأشكال التعبير غير اللغوية(§§§§§§§§§).

. أنه وقع فريسة المذاهب الفلسفية التي صرفته عن بحث العناصر اللغوية الأساسية.

. أنه اختزل مقاصد التواصل في الهدف الحسي، فهو مذهب مادي تأثر بالفلسفية البرجماتية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر عند جون ديوي و ويليام جيمس اللذين رأيا أن الحقيقة تكمن في طابعها المنفعي و المصلحي.

. أنه اهتم بالمقام التواصلي و متعلقاته أكثر من اهتمامه بالبنية اللغوية و المعنى.

§§§§§§§§§) لقد عالج ابن جنى وعبد القاهر الجرجانى علاقة النحو بالمعنى فى الخصائص٣/٣٣١، و دلائل الإعجاز،ص٨١وما بعدها،وتناول ابن مالك هذا فى صدر الفيته فى تعريف الكلام بأنه اللفظ المفيد،وبينه شارحو الألفية،و قد تناول محمود عكاشة هذا فى التحليل اللغوى فى ضوء علم الدلالة،دار النشر للجامعات،٢٠٠٥م ص١١٩وما بعدها.

. أن مفاهيمه الأساسية غير واضحه، و أبرزها مفهوم البراجماتية نفسه، فقد تحرى العرب له ترجمة لطيفة غير التي يثيرها مفهومه في الوعي الفلسفي، فقد ترجموه بالذرائعية، و التداولية، و الوظيفية، و الاستعمالية، و التخاطبية، و النفعية، و التبادلية، و علم التخاطب . و هو أبعدها . و أشدها بعداً و نكراناً "علم المقاصد"، و تجاهلوا النفعية و المنفعة التواصلية و النهازية.

البراجماتيون العرب(التداوليون)

يرجع ظهور البرجماتية في البحث العربي إلى النصف الأول من القرن العشرين عندما ترجمت بعض أعمال الفيلسوف و ليم جميز إلى العربية، و هذا في المجال الفلسفي، و قد ظهرت إرهاصاتها اللسانية في الستينات من القرن نفسه، و بلغت شهرتها في المجال البلاغي في الثمانينات، ثم ظهرت الترجمات اللغوية في التسعينات التي أدخلتها البحث اللغوي التطبيقي، و لكنها أكثر شهرة في البلاغة، و يرجع هذا إلى البحوث البلاغية التي كتبها المغاربة، و ذاعت في المكتبات العربية، فأقبل عليها طلاب التجديد في البلاغة، بينما تحفظ عليها اللسانيون(**********).

لقد تأثر بهذا المذهب بعض الباحثين العرب بهذا المذهب في المفاهيم و التطبيق في مجالي اللغة و البلاغة اللذين تنازعا البراجماتية، فقد ترجموا

**********) ارجع إلى: البراجماتية اللسانية، محمود عكاشة، ص١٨، و ٩٤ فما بعدها.

بعض الدراسات و الكتب، و اجتهدوا فى تطويعها للدرس العربى و تطبيقها، و كتبوا فيها، بيد أن التطبيقات يشوبها بعض اللبس و الضعف؛ لأن تطبيقهم غربي فى المفهوم و المضمون ، و ليس له معايير عامة فى التطبيق، و لا يساوق عرف التعبير عن القصد فى العربية، و لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن العناصر البلاغية في الخطاب البلاغي، فقد عجز عن استيعاب الأبعاد البلاغية و القصدية فى النص، و قد نشأت البلاغة فى كنف العربية و فى بيئة إسلامية غزتها بقيم تفتقد إليها البيئة الغربية التى تأثرت بالفلسفة الواقعية (المادية) ومناهج العلوم التجريبية و الفلسفة البنيوية التى استحوذت على الدراسات اللسانية فى القرن العشرين، فصارت شكلية لا تعتد بالمعانى أو قصد الخطاب، و قد تأثرت البلاغة الجديدة (الحِجَاج) فى أوربا بهذه التيارات، فاهتمت بالعلل و الأسباب و الأدلة المادية الواقعية، و غلبت عليها الغائية و الجوانب الفلسفية و المنطقية، و لم تكلف بالعناصر الجمالية و أثرها النفسى فى استجابة المتلقى و اقتناعه، و لم تعتد بالتذوق و القيم الفنية و الخصائص الأسلوبية الخاصة، و قد اهتمت بالخطابة السياسية، و تأثرت الدراسات الأسلوبية بهذا التيار الواقعى، فاتجهت نحو أسلوب النص دون سياقه الخارجى، و غالت فى هذا، و ظهرت دعوة موت المؤلف؛ لتقطع الصلة بين النص و قائله، و جعلت فَهْم المتلقى مرجع القصد، و هى الفكرة التى سيطرت على البراجماتيين الأوائل الذين توجهوا نحو استعمال اللسان فى سياق خطابى و فهم المتلقى دون قصد من وظّف الخطاب فى التعبير عن قصده، و لم يعتدوا فى الجانب

التأثيرى بغير ما يلاحظ على سلوك المتلقى من رد فعله و درجة استجابته، و الوجوه التى يحمل عليها استعمال الخطاب فى السياق و ما يتعلق به و ما يترتب عليه من أفعال، و اعتدوا فى الأفعال بالفعل الإنجازى فى الواقع، فالأحداث أفعال كلامية و إنجازات واقعية، و هم فى هذا متأثرون بالفلسفة البراجماتية التى حملت البراجماتية اللسانية (Linguistic Pragmatics) اسمها "Pragmatism"؛ لغلبتها عليها، فهذا المصطلح مخصوص بالفلسفة العملية النفعية أو الفوائدية، و جعلوا "Pragmatics" مخصوصاً بالبراجماتية اللسانية . أو التداولية اللسانية التى اشتهرت باسم التداولية، و اللفظان الأجنبيان من أصل واحد . و لم تجد البراجماتية الغربية بديلاً له، يعبر عنها؛ فتسمت به، و تعترف التداولية العربية بأنها امتداد البراجماتية اللسانية، و لم أعدل عن هذه التسمية الأصلية (Pragmatics) إلى ترجمتها؛ لأنها أدق فى التعبير عن دلالتها فى بيئتها بيد أن بعض الباحثين العرب اختاروا ترجمة "التداولية"، و التداول يعنى التفاعل بين طرفى الحوار، و البراجماتية تعتد بعملية التلقى لا بنية الخطاب و تزويره (إعداده فى النفس) و قائله و قصده؛ فالمتلقى مرجع معرفة القصد و ليس القائل، و التداول لا يحمل هذا المفهوم، و آخرون استعاروا لها تسميات تراثية ذات أبعاد إسلامية مثل "علم المقاصد" أو "المقاصدية" و "علم الذرائع" أو "الذرائعية" التى تعبر عن الذريعة أو السبب، و لهذه الاختيارات أثر سلبى فى دلالة المفهوم الإسلامى الذى يحمل قيماً دينية و ثقافية من تراث الأمة، و ليست هذه التسميات العربية إلا قناعاً عربياً يستر مثالب

الفلسفة البراجماتية النفعية فى النظرية اللسانية، و الترجمات العربية لا تعبر عنها تعبيراً دقيقاً، و دليل هذا عدم اصطلاحهم على تسمية دقيقة لها، و أرى أن تبقى على لفظها الدخيل؛ لدلالته على مفهومها الغربى الخالص، و ليس له مقابل دقيق يعبر عنه فى الدراسات العربية، و هذا معمول به فى نظير اللفظ من المصطلحات التى تحمل مفاهيم غربية مثل الرادكالية(Radicalism) و الفاشية (fascism) و غيرهما من المصطلحات التى ترتبط بثقافتها غير العربية أو بأصحابها كالمكيافيلية و الماركسية، و من التعسف أن نطوع لها بديلاً عربياً و أن نفرضه على ثقافتنا، و لن يضر هذا بعربيتنا، بل هذا علامة نبو هذه المفاهيم عن قيمنا و تراثنا، و أرى أن الذين استبْقوا على تسميتها الأصلية (البراجماتية) مصيبون و كذلك الذين ترجموها بـ "النفعية"، و هو أصل معناها.

و قد انتشرت "التداولية"؛ لشيوعها فى الترجمات و البحوث و المؤلفات؛ و لا سبيل لى فى ردها بعد شيوعها، و هذا لا يغير من عدم اقتناعى بهذه الترجمات و عدم قبولى هذا المنهج بأبعاده البراجماتية النفعية أن يكون التصور الجديد لعلم اللسان العربى أو أن يكون بديل بلاغتنا العربية أو يكون الصورة الجديدة للبلاغة، فهو لا يمثل البلاغة العربية، و قد ظهر علم اللسان البراجماتي تأثراً بالبراجماتية و نظرية أفعال الكلام بيد أن ملامحه اللسانية لم تكتمل، و المكتوب فيه لا يعطى تصوراً واضحاً له، و لا أراه إلا امتداداً لتطور البراجماتية اللسانية، و ليس علماً لسانياً مستقلاً كعلم اللسان النصى أو الاجتماعى، و لا مانع من ترجمة هذه الدراسات

إلى العربية للمطالعة و البحث عن وجوه المنافع فيها، و غفر الله تعالى لزملائى الذين وقفوا جهودهم للعمل بها فى العربية، و قد شغلتهم لحداثتها، و إن أرادوا بديلاً ناجعاً و مفيداً يقابلها، فعليهم بدراسة علم المقاصد عند علماء الأصول، فهو علم شاف واف، و يحتاج إلى من يعيد طرحه و تنظيمه فى الدراسات اللغوية و البلاغية الحديثة؛ للاستفادة منه فى تنظير معاصر يستوعب أنماط الخطاب المعاصرة و يحللها، و يكشف أبعادها اللغوية التواصلية والتأثيرية والإقناعية فى التعبير عن القصد، و سيجد الباحث فيه مادة غنية بالأفكار، و سيجد فيه حلولاً و أجوبة يطلبها بحثنا المعاصر، و سيجد فيه مساحة متسعة للتجديد و الابتكار و الاجتهاد، لن يجدها فى البراجماتية الغربية التى حصرت نفسها فى دلالة الاستعمال اللغوى، و لا شك أنها أتت بجديد فى الفكر الأوربى بيد أن كثيره إعادة اجترار لبعض أقوال الأصوليين فى معرفة القصد و استنباط الحكم من النص الشرعى، و قد دفع هذا بعض الباحثين إلى تجذير أصولها فى تراثنا تحت تسمية "التداولية عند الأصوليين"، و هو ما أطلق عليه عند الأصوليين "المقاصد" فى بحث المقاصد الشرعية.

و قد أطلق بعض الباحثين "علم المقاصد" على البراجماتية مساواة بالمقاصد عند علماء الأصول، و هو تكلف ليس فى موضعه؛ لأنه يضر بمفهوم المقاصد الأصيل و غايته الحسنة فى تأصيل المصالح النافعة و درء المفاسد، فهو صادر عن أصول شرعية، و البراجماتية الغربية تقوم على تحصيل المنافع الدنيوية من كل الوجوه و بكل الوسائل التى تبررها

دون تحفظ أو احتراز أو غاية شرعية، و المقاصد فى صيغة الجمع مخصوص بالنص الشرعى؛ لما يحمله من وجوه المعنى ووجوه المنافع و المصالح الدينية و الدنيوية، فالخطاب الشرعى من لدن عزيز حكيم و محكم وحمّال مقاصد نافعة، و أرى أنه من الصواب أن يظل مصطلح المقاصد فى صيغة الجمع قيد النص الشرعى، و ألا يستخدم فى قصد الخطاب البشرى المحدود، و لا يجوز أن نستخدمه ترجمة للبراجماتية اللسانية التى تقوم على الفلسفة النفعية، و تتبنى اتجاها لسانياً لا يستوعب عناصر اللغة الأساسية و معطيات الخطاب و عناصره الاتصالية، فقد اختزلت اللغة فى السياق التفاعلى(استعمال اللغة) أو السياق الخارجى (فهم المتلقى الخطاب ورد فعله القولى و الإنجازى)، و للباحثين أن يستخدموا مصطلح "القصد". و هو المصدر العام . للتعبير عن غرض الخطاب البشرى منعاً للتلبيس والتشويه.

البراجماتية البلاغية:

لقد اجتهد بعض الباحثين البراجماتيين العرب تأصيل البراجماتية فى البلاغة، و بذل بعضهم نشاطه البحثي للبحث فيها، و أنشأ لها صحيفة علمية (مجلة بحثية أو دورية)، و أقام لها مؤتمرات، و عرف بها في المجال البحثي، و قد سمّاها أتباعها البلاغيون "التداولية البلاغية" و "التداولية العربية" يريدون مقاصد الخطاب فى التعبير، و زعموا أن عبد القاهر الجرجانى و حازم القرطاجنى من مؤسسى التداولية العربية، و أسقطوا بعض الأفكار البراجماتية البراجماتية على بعض التراث البلاغى؛

ليؤصل لها فى العربية، و لهذا الإسقاط أثر سيء فى تراثنا، فسوف يترتب عليه اتهام البلاغة بالضيق و العجز و أن مفسرى النصوص حرفيين، و الخطورة العظمى فى تطبيق هذا المنهج على النص القرآنى، فلسوف تحمل بعض المعانى على غير وجهها، و لسوف يقال إن المفسرين و الفقهاء لم يتوصلوا إلى مناهج صحيحة فى معرفة المقاصد و أحكام التشريع، و أن آراءهم فى المعنى و استنباط الحكم تحتاج مراجعة فى بعض النصوص . و قد قيل . و قد انتقد بعضهم البحث البلاغي بالتقصير و الضيق و العجز عن نظرية تداولية تكاملية، و تأسف بعضهم على تقصير البحث العربي فيها و عدم نهوضه بها، و بعض المؤلفات المغربية التي اشتعلت في شيب البحث العربي لفقت بين البراجماتية الغربية و عناصر البلاغة العربية، و عبثت بالأصول البلاغية التي اختلطت في أبحاث المقلدين، و بعضهم تماهى في تطبيق البراجماتية الغربية، و اتخذها بديل البلاغة، و هي من شواهد الفرنسة التي لم تباغتنا في البحث العلمي المترهل ليس من فرنسا، بل من المغرب العربي، فأذعنا له طائعين تآخياً و عروبة، و نجح مخطط الغزو بالوكالة.

و قد عدها بعض المحدثين بديل علم اللسان مثلما عدوا الحجاج بديل البلاغة تأثراً بالغربيين أيضاً، و هذا تضيق مجالى اللسان و البلاغة العربية الواسعين، فالتداولية فى الحقيقة لا تستوعب إلا جزءاً يسيراً من اللسانية العربية، و ليست هذه الزوبعة حول التداولية و المبالغات فى قيمتها و وظائفها و مستقبلها إلا مثل الزوبعة التى أثارها الهُواس حول

البنيوية التى زعموا أنها ذروة العقل و نضجة، ثم ما لبثت أن ذهبت جُفاء، و صارت كتب البنيوية و الدراسات التى تبنتها على الأرصفة يعافها القراء، و هذا مصير كل زبَد لا يصدر عن مرجعية بشرية ذات قيم و ثوابت علمية، و هى أشبه بمن يسير على قدم واحدة؛ لأنها تبنت جانباً لغوياً، و أهملت جوانبه الأخرى، و هذا شأن الأفكار الغربية التى قامت على رؤية فردية ترى شيئاً و تجاهل أشياء، فهى لا تستوعب كل الجوانب اللسانية، و قد تأثرت بالفكر المادى الذى تأثرت به البنيوية قبلها بيد أنها اهتمت بوظائف الاستعمال اللغوى فى السياق الكلامى فى مقابل البنيوية التى اهتمت بشكل اللغة و نظامها العام القواعدى الذى يربط بين وحداتها اللفظية متجاهلة المعنى و تطوره و علاقة اللغة بالسياق الخارجي و أثره فيها، و هذا لا يمنع أن نعول على بعض الوسائل و العناصر الحديثة و بعض المناهج فى بحث مقاصد النص القرآنى، فالذى يأباه العقل و الإنصاف أن نحمل نصاً مرتبطاً بتنزيله على ما فى عصرنا، أو أن نقصيه عن قائله ﷻ، و نسقط عليه أفكارنا و أغراضنا، فنفسده.

التطبيق البراجماتي:

لقد لفق بعض الباحثين محاور تطبيقية مستفادة من التداخلات المذهبية في البرجماتية، فاهتموا بدراسة الوظيفية اللغوية و الاستعمال اللغوي المقامي المتعلق بالنص أو الخطاب، و درسوا العلاقة بين المتكلم و المخاطب، و درسوا وسائل الحجاج و الإقناع و أفعال الكلام داخل النص، و درسوا العلامات و علاقتها بمستعمليها و مقام الاستعمال و المرجع و

الإحالة، و البنيات الشكلية و الجمالية، و المقصدية الوظيفية و اللغة العادية و اللغة غير العادية (اللغة الشعرية، اللغة الروائية، و اللغة الدرامية)، و المقامية التواصلية (حضور الأنا و الأنت)،

و قد اهتم التداوليون بدراسة العناصر المقالية، و الانتقال من الحرفي إلى الإنجازي، و عناصر الحجاج في النصوص و الخطابات التي يكون هدفها الإقناع الذهني و التأثير العاطفي الوجداني، و درسوا السرد الإقناعي . عند جريماس . خاصة في مقام التطويع و التحفيز المبني على فعل الاعتقاد و فعل التأويل، و الكفاءة المبنية على منطق الجهات (وجود الفعل، و ومعرفة الفعل، و قدرة الفعل، و إرادة الفعل).

و قد اهتم التداوليون في اللغة بالمكونات الثلاثة التي طرحها شارل موريس: التركيب، والدلالة، والوظيفة، و بالمظاهر الثلاثة: المظهر الخطابي، و المظهر التواصلي، و المظهر الاجتماعي في ضوء الموقف التواصلي في اللغة الطبيعية، و ظهرت الاتجاهات التحليلية الآتية:

ا . التداولية النصية التي تعاملت مع الخطاب كلية عضوية متسقة و منسجمة، و عدته جملة نصية كبرى، تتعامل معها كالتعامل مع الجملة اللسانية، و قد تبناه إميل بنيفنست، و هاريس، ورومان جاكبسون، و بعض السيميائيين، و منهم جريماس، و بعض التأويليين، و منهم بول ريكور.

ب . التداولية الجمالية التلقي التي تبناها ياوس و آيزر، و الوظيفة الشاعرية أو الجمالية، ترسل عبر قناة وظيفتها الحفاظ على الاتصال، و يمكن الاستفادة من وظائف اللغة التي أرساها رومان جاكبسون

(R.Jackobson)، منها الوظيفة الانفعالية التعبيرية، و هي تحدد العلائق الموجودة بين المرسل و الرسالة، و تحمل هذه الوظيفة في طياتها انفعالات ذاتية، و تتضمن قيما و مواقف عاطفية و مشاعر و إحساس يسقطها المتكلم على موضوع الخطاب المرجعي، والوظيفة التأثيرية التي تقوم بتحديد العلاقات الموجودة بين المتكلم و المتلقي، حيث يتم تحريض المتلقي، و إثارة انتباهه، و إيقاظه بالترغيب و الترهيب، و هذه الوظيفة ذاتية.

د . التداولية التلفظية المقامية التي بحثت المعينات: أسماء الإشارة، و الضمائر، و أداة التعريف، و أدوات التملك، و الزمان، و المكان، و الصيغ العاطفية و الانفعالية، و أحكام التقويم، و قد تبناها أتباع موريس: بنيفينست، و لاينس، و أوريكشيوني.

هـ . تداولية أفعال الكلام التي تبناها أوستين و سيرل و جرايس الذين رأوا أن الفعل الكلامي يؤدي إلى تحويل وضع المتلقي، و تغيير نظام معتقداته، و تبديل مواقفه السلوكية.

و . التداولية الوظيفة التي تبناها فان ديك و هاليداي و رقية حسن.

ز . التداولية المقصدية التي تدرس مقاصد الخطاب في الاستعمال المقامي.

ح . التداولية التحليلية التي تتناول عناصر التحليل الدالة على القصد.

ط . التداولية الحجاجية اللغوية التي تدرس وسائل الحجاج اللغوية و المنطقية و المقامية، و تذهب التداولية الحجاجية إلى أن النص أو الخطاب عبارة عن روابط لغوية حجاجية، و أشهر من تبناها أوزوالد

دوكرو (Ducrot)، الذي أدخل البعد التداولي ضمن الوصف اللساني، و عده أحد مكوناته الرئيسة إلى جانب التركيب و الدلالة.

ي . التداولية الإقناعية التي تدرس وسائل التأثير و الإقناع اللغوية و المقامية.

ل . التداولي الحوارية التي تدرس عناصر الحوار و وسائله و مقاصده.

و غيرها من الاتجاهات التحليلية التي تجسد التداخل بين المحاور اللغوية و البلاغية التداولية و النقد، و تعد هذه المحاور المستعارة من الفروع الأخرى عبئاً على الباحث و سبباً في عدم وجود معايير معلومة في التطبيق، فالباحث ينتخب منها ما شاء، و يدعيه منهجاً تطبيقياً، أو يزعم أن الدراسات الحديثة ألغت الحواجز بين العلوم عندما يخطئ في تطبيق المنهج، و تضطرب موضوعات بحثه و تختلط، و البحث العلمي له معالم منهجية واضحة.

مذهب تحليل أفعال الكلام

ترجع فكرة "أفعال الكلام" أو " نظرية أفعال الكلام" (Theory of speech acts) إلى الفكرة التي طرحها أرسطو في الفصل الأول من كتابه "العبارة" الذي رأى فيه أن "كل جملة ذات دلالة....، لكن ليس كل جملة تقريرية إلا تلك التي فيها صدق أو كذب، و ليس هناك صدق أو كذب في كل الجمل، فالدعاء جملة، لكنها ليست صادقة و لا

كاذبة"[†††††††††]، و قد بقيت آراء أرسطو معمولاً بها إلى القرن التاسع عشر، و كان أول من عارض آراءه هذه الفيلسوف توماس رايد الذي طرح فكرة "العمليات الاجتماعية" أو "الأفعال الاجتماعية" في مقابل "الأفعال الأَحدية"(الفردية)، و يعد الفيلسوف الألماني الظاهراتي أدولف رايناخ أول من طرح فكرة "أفعال الكلام"، و أول من درسوها دراسة علمية، فقد تناول الوعد و الطلب و الأمر تحت مسمى "الأفعال الاجتماعية"، و تناول هوسيرل "الأفعال التشييئية" التي بناها على طروحات سابقة، و أول من طرح فكرة "أفعال الكلام" بوهلر في كتابه "نظرية اللغة" (١٩٣٤م)، و قد رأى أن كل استعمال للغة يظهر حتماً واحدة من هذه الوظائف: التمثيل أو التعبير أو الإنشاء[‡‡‡‡‡‡‡‡‡].

و يعد الفيلسوف جون أوستين(Jane Austen)(١٩١١ : ١٩٦٠م)[§§§§§§§§§] المؤسس الحقيقي لنظرية أفعال الكلام (Theory of

---

[†††††††††] النظريات اللسانية الكبري من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد راضي، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢م، ص ٣٥٠، و قد تبنى أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) "التأويل" الأفلاطوني إلى نهايته المنطقية، و قد أطلق على كتابه المخصص للحديث عن "علم الدلالات و المنطق" اسم "بيري أرمنياس" (Περι Peri Hermeneias) (Ερμηνειας الذي حمل عنوان: "حول التفسير" (On Interpretation) ، و قد ترجمه ابن سينا باسم: "العبارة"، و طبعته الهيئة المصرية للكتاب.

[‡‡‡‡‡‡‡‡‡] ارجع إلى: المقدمة التي كتبها عبد القادر قنيني، لترجمة نظرية أفعال الكلام، ص ٥، و التداولية و اللسانيات، عادل الثامري ، مجلة دروب، مقال في ١٩ /٥ /٢٠٠٦م.

[§§§§§§§§§] فيلسوف اللغة الإنجليزي جون لانجشاو أوستين أبو البراجماتية اللسانية الذي تأثر بفيلسوف اللغة المنطقي فتجنشتاين الذي يرى أن المعنى هو الاستعمال و قد تأثر أيضاً بمجال عمله في القضاء الإداري، و قد تبلورت نظريته في محاضراته الأخيرة التي ألقاها في جامعة هارفارد عام ١٩٥٥م، و هي التي جمعت في كتابه "How to doThings With Words" (كيف نفعل الأشياء بالكلمات) بعد وفاته١٩٦٠م، و قد ترجم إلى العربية: "كيف ننجز الأشياء

speech acts) في اللسانيات الحديثة التي طرحها في محاضراته التي جمعها تلاميذه بُعيد وفاته في كتاب "كيف نفعل الأشياء بالكلمات"(**********) . و هي النظرية التي وصفها الباحثون العرب بنظرية أفعال الكلام العامة . و قد جاءته فكرتها من عمله بالقضاء الإداري الذي يستخدم أفعالاً طلبية خاصة ثبوتاً أو نفياً، و لها أثر مباشر إلزامي و رد فعل عملي، فاتخذ هذا النموذج مثالاً تطبيقياً، و عول في دراسته على روافد فلسفية فسر بها طبيعة هذه الأفعال و أثرها(††††††††††).

بالكلام" في المغرب، و قد عممه بعض الباحثين في التحليل، و هو يتناول دلالة القرار السيادي الملزم للمخاطب به كالقرار السياسي و القضائي.

**********) ألقى أوستين عدداً من المحاضرات في أكسفورد بين عامي ١٩٥٢م و١٩٥٤م، ثم ألقى اثنتي عشرة محاضرة في هارفارد في عام ١٩٥٥م ، و قد جمعت هذه المحاضرات الأخيرة في كتاب بعد وفاة أوستين عام ١٩٦٠م ، و نشرت بعد وفاته في كتاب عنوانه : How to doThings With Words ، و ترجمه عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق. و هذه النظرية تشبه ما وقع لبنيوية دي سوسير التي تعرف عليها الباحثون من المحاضرات التي جمعها تلاميذه، و نشروها بعد وفاته، فقد طرح أوستين رؤيته في المحاضرات، و من ثم نجد في الكتاب بعض الاضطراب و التكرار.

††††††††††) لقد لاحظ أوستين أن هناك عبارات إذا نطقت بها تؤدي قولاً منجزاً، و يتحقق عنها فعل منجز في الوقت نفسه، كأن تقول لمن بشرك بمولود : سميته محمداً ، فقد قلت قولاً منجزاً، و أنجزت فعلاً عينياً، و هو رد الفعل أو الأثر، ولكن هذا ليس مطرداً في كل الأفعال؛ لأنها ليست كلها من هذا النوع الذي يترتب عليه أثر خارجي، لذلك قسمها قسمين: أحدهما ـ الأفعال الإخبارية : التي تصف الواقع الخارجي ، و هي تتسم بالصدق أو الكذب.

و الأخرى ـ الأفعال الأدائية التي تُؤدى بواسطتها أفعالاً معينة، و لا يمكن وصفها بالصدق أو الكذب ، بل توصف بأنها موفقة أو غير موفقة، و منها الأفعال الدالة على : الاعتذار ، الوصية ، الوعد ، النصح، و الشكر و التمني و النداء و الدعوة، و هذه الأفعال تحقق هذه الأغراض، وهي قيد الملائمة، و بعض الأفعال الإخبارية تتضمن أداءً ، مثل : جاء الغادر، يتضمن تحذيراً، و من ثم قسم الفعل باعتبار الأثر إلى: الفعل اللفظي : المتألف من أصوات لغوية ضمن تركيب نحوي صحيح ينتج عنه المعنى الأصلي. و الفعل الإنجازي: ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي مع معناه الأصلي. و الفعل التأثيري : الأثر الذي يحدث عند السامع من خلال الفعل الإنجازي.

و قد تأثر في نظريته بكتاب "الخطابة" لأرسطو، و استدل بأمثلة من مجال القضاء الذي عمل به محرراً، و استخدم طريقة البرهان الخطابي المعمول به في القضاء الإداري، و من ثم يفسر الفعل الإنجازي و كيفية اتخاذه عنده في ضوء القانون الإداري كحديثه عن قرار الحرب و عقد العقود كعقود البيع و الشراء و الزواج، و من ثم قامت نظريته على الأساليب الإنشائية و الجمل التي تدل على الطلب، و هذه النظرية تقترب كثيراً من مفهوم الإنشاء في العربية و دلالة "فعْل الأمر" عند الأصوليين. و الإنشاء عنده: إخراج الأشياء من العدم إلى حيز الوجود بأفعال لغوية طلبية قيد أوضاع و مواقف.

و قد تناول أوستين "أفعال الكلام" في مجموعة من محاضراته التي جمعها تلاميذه بعد وفاته في كتاب "نظرية أفعال الكلام"، و قد تأثر في نظريته بعمله في القضاء الإداري الذي يستخدم أفعالاً أدائية (طلبية) تدل على أغراض مختلفة، و تعبر عن أقوال ننجزها في التواصل؛ لتحقق أثراً

و قسم أوستين الأفعال على أساس قوتها الإنجازية إلى خمسة أصناف: أولها ـ أفعال الأحكام: ما يتمثل في حكم يصدره قاضٍ أو نحوه.
ثانيها ـ أفعال القرارات: تتمثل في اتخاذ قرار بعينه ، كالتعيين ، والطرد ، والإذن.
ثالثها ـ أفعال التعهد: تتمثل في تعهد يقدمه المتكلم ، كالوعد ، والقسم ، والتعاقد.
رابعها ـ أفعال السلوك : كالاعتذار ، والشكر ، والتحدي .
خامسها ـ أفعال الإيضاح: الأفعال التي تستعمل لإيضاح وجهة نظر أو بيان رأي ما كالاعتراض ، و التشكيك ، و الموافقة ، و الإنكار، و التصويب ، و التخطئة. [ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام، ترجمة قنيني، أفريقيا الشرق، ص١١ و ما بعدها] و قد كتبت بحثاً أرد فيه على عيوبها، و كتبت نظرية أحداث التكلم رداً عليها، و قد تناولت بعض قضاياها في كتابي تحليل الخطاب (ط دار النشر للجامعات).

أو رد فعل، و هذا النوع تعبر عنه الأفعال الطلبية أو الإنشائية، و قد تعبر عنه الجمل الخبرية التي تدل على معنى طلبي، نحو: وقت العمل انتهي، أي: أسرع أو اخرج، و الأحداث: لفظية منجزة أو فعلية منجزة (العمل).

و الفعل الإنجازيّ عند أوستين: "ما نقوم به خلال كلامنا"، أي: الآثار الناتجة عن المنجز الكلامي أو ما يترتب على القول الطلبي المباشر أو غير المباشر من أثر واقعي أو رد الفعل الخارجي، أي: ارتباط الكلام أو القول بالحدث الواقعي الذي يعبر عنه مباشرة، و هو يخالف الفهم المجرّد لهذا الكلام و القضايا المنطقية المجردة، و قد ربط فان دايك مفهوم الفعل الإنجازي الأدائي بمفهوم الحدث، و عرف الفعل بأنه: كلّ حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني.

و الحدث (act) له معنيان: أحدهما لغوي، تعبر عنه اللغة، و الآخر الفعل المنجز، و قد أراد به أوستين الفعل المتحقق من فعل التلفظ، و هو الحدث الفعلي في العالم (رد الفعل أو الأداء و الأثر المترتب على قول)، يقال أيضاً: الفعل الخارجي أو العمل الحسي و الكينونة و التشيؤ (Doing) و الوجود، و هذا يؤكد لنا أنه استهدف الأفعال التي تحقق غاية عملية في الواقع، و أنه عمم حدوث آثار عملية لها أو استجابة إيجابية مباشرة لا تنفك عنها، و لا تتمرد على الفعل، و أن الاستجابة السريعة لازمة، و أنها قد تكون على التراخي لطبيعة الفعل أو لموانع ترجئ الحدوث إلى زمنه و مكانه المهيأ لحدوثه، و لعل اختزاله الحدوث في الفعل العملي دون الحدوث النفسي الباطني و الاستجابة الإيجابية الجبرية المتوقعة من

طبيعة الحكم القضائي الملزم بأثر فعلي أو عمل نافذ، و ليس معنياً بأفعال المعاني (الدالة على البواطن) و آثارها الباطنية، بل العملية و السلوكية.

و من شروط إنجاز الأفعال . في النظرية . اقتضاؤها الشروط التي تضبط دلالتها و الأحوال الذهنيّة السابقة، و هي تقوم على القصد؛ لأن حصول الأفعال المنجزة تعبيراً عن القصد هو ما يجعلها منجزة، و هي تمثل الغرض البراجماتي (التداولي) الذي يتحقق من استعمال اللغة في علاقة العلامات اللغوية بمستخدميها، فالبراجماتية تمنح هذه الأفعال إطاراً تواصلياً ضمن بنية خطابية قابلة للتأويل؛ و هو ما يسمى بتأويل العبارات البراجماتي، و قد وضع أوستين المفهوم اللغوي لهذا النوع من الخطاب باعتباره عملاً لغوياً، و قد ميز فيه بين ثلاثة مكونات:

أولها . العمل القولي(الإنجاز الكلامي): أن نقول شيئاً، و هو المنطوق القولي.

و الثاني . العمل المتضمن في القول(المعنى الطلبي): العمل الطلبي الضمني، و يتضمن قولاً بالإثبات أو النفي أو التمني أو معنى طلبياً.

و الثالث . أثر العمل الكلامي الفعلي: العمل المتحقق نتيجة قولنا، أو رد الفعل الواقعي، نحو: تحقيق فعل معين أو الأثر السلوكي (إيجاد حالات الخوف أو الإقناع أو حمل المخاطب على سلوك معين). و قد رأى جون سيرل تلميذ أوستين من بعده "أن إنجاز هذا العمل يتم من خلال أعمال فرعية، و هي: التلفظ، و الإحالة، و الإثبات، و التأثير، و سوف أبينها لاحقاً.

و لقد فرق أوستين بين نوعين من الكلام، أولهما . ما يحكم عليه بالصدق أو الكذب، و الآخر . ما لا يمكن الحكم عليه، فعندما نتفوه بالملفوظات لا نقوم بالإخبار، فبعض الملفوظات لا يمكن الحكم على أنها خطأ أو صواب، و هو هنا يستعير مفاهيم المناطقة في الحكم على الجملة أو استحالة الحكم، و هما الجملة الخبرية و الإنشائية عند النحاة، و الحكم على صحة الجملة لغوياً موضوع نحوي، و الحكم بالتصديق أو انتفائه موضوع منطقي.

و قد فرق بين القول و العمل، فإننا نقوم بإنجاز بعض الأفعال بالألفاظ، فالتفوه بالملفوظات فعل في ذاته، و أثره خارج اللغة فعل وظيفي آخر، كقول المتكلم: "إني أعتذر عن التأخير"، فهو إلى جانب فعل التفوه قد قام بفعل الاعتذار، فالتفوه ببعض العبارات ينتج عنه عقد البيع أو التهديد أو الاعتذار أو الشكر ...، و توجد جمل أخرى في شكل خبري تحتمل الإنشاء في مقامها، و من ثم لا يحكم بصوابها أو خطئها و الأفعال المستعملة في هذه الجمل تسمى الأفعال الإنجازية أيضاً، مثل: أعتذر، أشكر، أصادق، أقبل، أطلب(‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡).

و الأفعال عند أوستين نوعان: أحدهما . الأفعال الإخبارية التي تصف الوقائع، و يقضى فيها بالصدق و الكذب، مثل: تنحى فلان عن منصبة. صادقة لوصفها حادث متحقق، و تكون كاذبة لمجيئها على غير وصف

‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡) ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون أوستين، ص ١٢و ما بعدها.

الواقع(§§§§§§§§§§)، و هي المواقعة عند المناطقة.

و الآخر . الأفعال الأدائية(**********) التي تعبر عن معاني طلبية، و لا يمكن وسمها بصدق أو كذب في الحكم، و منها : الأمر، و النداء، و التمني، و قد جعل منها أوستين: الاعتذار ، الوصية ، الوعد ، النصح ....، و هذه الأفعال في الجملة العربية تفيد الخبر، و يترتب عليها أثر القبول أو الرفض، وهي باعتبار نطق الفعل اللغوي منجز قولي.

و هو لم يفرق بين أثر الفعل الملزم: كأفعال العقود التي يترتب عليها الوقوع كبعتك و زوجتك، و الأثر المتراخي الذي يقع لاحقاً في غير زمان القول و مكانه، و الأثر المحتمل المترتب على الأفعال المسوفة التي تحتمل الحدوث و الأفعال الطلبية كالأمر الذي يحتمل القبول و الرفض، و الوعد الذي يحتمل الإنجاز، و التمني المستحيل، و الجمل الخبرية التي تحتمل معاني إنشائية(††††††††††††).

و قد قسم أوستين الأفعال باعتبار التلفظ و الحدوث تقسيماً ثلاثياً مشابها أنواع الفعل السابقة: إلى ما يأتي:

---

§§§§§§§§§§) النظريات اللسانية الكبري من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، ص ٣٥٥، لقد ميز أوستين بين الملفوظات التي تصف وضعاً، نحو: السماء زرقاء، و الملفوظات الإنجازية التي تسمح بإنجاز فعل ما، نحو: أعدك بحل المشكل. الأولى تكون صادقة وفق ما تصفه، و الأخرى تعبر عن التزام حسب رؤية أوستين. و لا يقضى فيها بصدق أو كذب.

**********) النظريات اللسانية الكبري من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، ٢٠١٢م، ص ٣٥٥

††††††††††††) تحليل الخطاب في ضوء أحداث اللغة، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ٢٠١٤م، ص٧٢ وما بعدها.

ا . الفعل اللفظي(Locutionary act): المتألف من أصوات لغوية ضمن تركيب نحوي صحيح يعبر عن المعنى الأصلي.

ب . الفعل الإنجازي أو الفعل غير اللفظي (illocutionary act) : الفعل الذي يقصده المتكلم بالجملة، كطلب وجوب فعل الأمر أو النصيحة.

ج . الفعل التأثيري(perlocutionary act): الأثر المترتب على القول الذي يحدث عند السامع من خلال الفعل الإنجازي، كطاعة الأمر، أو الاقتناع بالنصيحة، أو تصديق المتكلم أو تكذيبه(ǂǂǂǂǂǂǂǂǂǂǂǂ).

و قد بينها أوستين بأمثلة منها: قال صاحب المطعم: "سيغلق المطعمُ بعد ربع الساعة"، أنجز فعلاً لفظياً منطوقاً أو مكتوباً، و هو فعل نطق الكلمات، و قد أنجز فعلاً آخر ضمنياً، هو حث الزبائن على طلب ما يريدون قبل الإغلاق، و يترتب على هذا رد فعل المتلقي الذي يتمثل في استدعاء العامل بالقول: ائت، أقدم، هات، و يعين الطلب بالقول، أو أن يعبر عن طلبه بالحركة و الإشارة و الرمز (الفعل غير اللغوي، و يستخدم المتكلم فيه تعبيرات يستوعبها متلقيها)(§§§§§§§§§§§§).

و هنالك تسميات أخرى كالتلفظ و قوة فعل الكلام(إعادة اللغة الأشياء إلى ما كانت عليه بعد أن تحولت إلى رموز تعبر عنها)، و لازم فعل الخطاب (مقاصد المتكلم المفهومة من السياق، أي: المعاني المتحققة من

ǂǂǂǂǂǂǂǂǂǂǂǂ) ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام، ص ١٢ و ما بعدها، و ص ١٣٨، و ارجع إلى: ص ١٨، ص ٦٠

§§§§§§§§§§§§) نظرية أفعال الكلام العامة، ص ١٢٤

السياقات)، و قد أراد أوستين أننا ننجز أشياء باللغة، فالطاولة كانت شجرة لها تاريخ، و لا يجب اعتبار ما صارت إليه فقط بل ما كانت عليه، و اللغة كذلك تنجز أشياء بمجرد إنجازها تلفظاً، نحو قولك: بعتك و زوجتك: وقع البيع و التزويج.

و تقسم الجمل الإنجازية وفق التوصيف الذي اقترحه أوستين إلى جمل إنجازية ظاهرة و جمل إنجازية ضمنية، فالنوع الأول الجمل التي يظهر فيها الفعل الإنجازي، مثل: "أعدك بالحضور". و الجملة الإنجازية ترادف الإنشائية أو الإنشاء (Performative) عند أوستين، فهي في صورتها الطلبية فعل لغوي و في الواقع أثر منجز(**********). و النوع الثاني الجمل الخبرية التي تحتمل الإنشاء، الجمل التي لا تظهر فيها الأفعال الإنجازية كالجمل الدالة على العقود كأبيع و أتزوج، و أسلوب الوعيد و التهديد مثل: "أعلن الحرب"، و"أَخرجُ من الغرفة!" حيث لا يظهر الفعل الإنجازي "أطلب" فيهما، ومثل: "هناك مرض معدٍ في المدينة"، قد تكون هذه الجملة تحذيراً، و قد تكون إخباراً فقط. و قد أطلق أوستين على أفعال الكلام التي يمكن أن تؤدى بصيغ أخرى غير الصيغة الأساسية للملفوظات الإنجازية اسم "الأفعال اللالفظية"، و هي في الحقيقة مستوى من مستويات فعل الكلام الذي ينجزه المرء عقب النطق بالجملة، و هذا يعني أن أفعال الكلام ليست مجرد إصدار أصوات، و هو يريد بهذا بعض أشكال الجمل

**********) نظرية أفعال الكلام العامة، ص١٧

الخبرية التي تعبر عن المعنى الإنشائي.

و قد رأى بعض النقاد أن أوستين أخذ أفكار نظريته ممن تقدموه، و أنه تأثر بفتجنشتاين(††††††††††††) الذي رأى أن اللغة العادية معيار صحة أو بطلان ما نقوله . و رأوا أيضاً أن مفهومي التلفظ (Enunciation) و فعل قوة التلفظ (Effective of Enunciation : action) أخذهما من مفهومي فتجنشتاين "Sentence Radical" و "Modal Element"(‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡).

• أنواع الأفعال الإنجازية باعتبار المعنى عند أوستين(§§§§§§§§§§§§§):

أ . أفعال الأحكام: تتمثل في حكم يصدره قاضٍ أو نحوه: يفرج عن، يبرئ، يخلى سبيل، يعفو.

ب . أفعال القرارات أو التنفيذ: تتمثل في اتخاذ قرار كالتعيين و الفصل، و المنح و السلب، والإذن و المنع، و أفعالها: أعين، أقرر، أثبت، أفصل، أجيز، أسمح، أعفو، أحجب، و منها القرار الشخصي: تنحى، استقال، تنازل.

---

††††††††††††) ارجع إلى: بحوث فلسفية، تأليف لودفيج فتجنشتين، ترجمة د. عزمي إسلام، موقع فلاسفة العرب، و مفهوم الفلسفة في نظر فتجنشتاين، و ليد عطاري، مجلة المنارة، المجلد ١٣، العدد ٢٠٠٦،١م، ص ٣٠٦ م و ما بعدها.

Wittgenstein, L. Philosophical Investigations, Oxford, 1953

‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡) التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، الدكتور صلاح إسماعيل، مكتبة بستان المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٣م، ص٢٤، "Sentence Radical" و "Modal Element": الجملة الأصلية و النمط المعياري.

§§§§§§§§§§§§§) النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص٣٦٠

ج . أفعال التعهد: تتمثل في تعهد يقدمه المتكلم ، كالوعد ، والقسم ، والتعاقد.

د . أفعال السلوك: الاعتذار، و الشكر، و الترحيب.

هـ . أفعال الإيضاح: الأفعال التي تستعمل لإيضاح وجهة النظر أو تبيين الرأي، أو الاعتراض، والتشكيك، والموافقة، والإنكار، والتصويب، والتخطئة(**********).

و قد تأثر في هذا التقسيم بالقضاء، و استخدم مفاهيمه و مفرداته أيضاً، و اختزل دلالة أفعال في قرارات القضاء و تصنيفها و درجاتها.

و يتبين من هذا أن أوستين رأى أن الذي يجعل الأمر أمراً و الإلزام إلزاماً في الاستعمال اللغوي التطفلي الموقف الكلي الذي يستعمل فيه الكلام، و أن الموقف الكلي يتألف من الحقائق ذات العلاقة بمقاصد المستعمل التي تحدد نوع الموقف مثل صدق العلاقة القائمة بين المتكلم و السامع؛ ليكون الأول آمراً للآخر، و مثل قراءة المتكلم قصيدة أو اقتباسه من جريدة، أو أن يمثل في مسرحية، و قد رأى تلميذه جون سيرل (John Rogers Searle)(و:١٩٣٢ بأمريكا) أن الاستعمال اللغوي يتحدد .

**********) أرى أن ما سماه فعلاً من الأفعال الطلبية كالاعتذار أو الشكر أو النداء ليس فعلاً بل تعبيراً عن فعل (الاعتذار أو الشكر أو النداء)، ففعل الاعتذار يقع أداء في الواقع بالحركة و الإشارة و التشخيص، فقد خلط بين دلالة الفعل اللغوي و الفعل الواقعي، فالأول (أعتذر) تعبير عن الفعل الواقعي (كالانحناء و الانكسار و وضع النظر)، و كذلك الشكر يعبر عنه بالقول الدال أو فعل الحركة المتوا

ضع على دلالتها عليها، و الصواب أن نفرق بين النوعين بلفظي القول و الفعل، و هذا يتطلب منها تعيين دلالة القول و الفعل في اللغة.

اعتياداً أو تطفلاً . بموجب قصد المؤلف، فالذي يتكلم الإنجليزية سيكون قادراً على تأليف قصص، أو أن يمثل في مسرحيات، و أن يستخدم الأفعال بمقتضى غرضه(††††††††††††††).

و قد رأى أوستين أن الإنجاز يختلف باختلاف المؤسسة التي يصدر عنها التلفظ أو وظيفة المتكلم، فالتلفظ القانوني غير السياسي، و التلفظ السياسي غير الاجتماعي و غير الديني(‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡).

• تطوير جون سيرل نظرية نظرية أفعال الكلام:

لقد قام جون سيرل تلميذ أوستين بتطوير نظريته حيث أعاد النظر في التقسيم الثلاثي للفعل الكلامي، فجعل بدلاً من فعل التلفظ "فعل القول" الذي يعبر عن فعل القضية (§§§§§§§§§§§§§§§)، و قسم الأفعال على هذا النحو: ا . فعل القول. ب . فعل القضية (الفعل الخبري و فعل المرجعية). ج . الفعل الإنجازي. د . الفعل التأثيري.

و قد طور سيرل شروط الملاءمة عند أوستين، فجعلها محكومة بأربعة شروط:

أولها . شروط المحتوى القضوي، و تتحق بأن يكون للكلام معنى قضوي من خلال قضية تقوم على متحدث عنه أو مرجع، و متحدث به أو خبر، و يكون المحتوى القضوي المعنى الأصلي للقضية(و القضية عند

---

†††††††††††††††) ارجع إلى: فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، الدكتور صلاح إسماعيل، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٥٦

‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡) النظريات اللسانية الكبري من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص٣٥٦

§§§§§§§§§§§§§§§) النظريات اللسانية الكبري من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص٣٥٦

المناطقة: الجملة الحملية المؤلفة من موضوع و محمول).

ثانيها . الشرط التمهيدي، و يتحقق إذا كان المتكلم قادراً، و لو بوجه من الوجوه على إنجاز الفعل .

ثالثها . شرط الإخلاص، و يتحقق حينما يكون المتكلم عازماً على أداء الفعل.

رابعها . الشرط الأساسي، و يتحقق حين يحاول المتكلم التأثير في السامع.

و قد غيَّر سيرل تصنيف الأفعال الإنجازية، فجعلها خمسة :

الأول . الفعل الإخباري أو الإقراري (Assertive)، و الغرض الإنجازي منه وصف واقعة معينة من خلال قضية، و يتميز بتوافق الملفوظ مع حالة العالم، و يتمثل عرضها الإخباري في نقل الوقائع، و تُدرج فيها كل الأفعال الدالة على التوضيح و الأحكام، و لذلك تحتمل الصدق أو الكذب (و هي تضم الحكميات و الإيضاحات عند أوستين)، و منها ما يأتي:

ا . الأفعال التي تدل على الأحداث القائمة و تصف المشهد في الخطاب: يثور، يفسد، يخرب، يسقط، يقتل، يدمر، يعصف، أرى، أشاهد، أعاين.

ب . الأفعال الشعورية: أحزن لما يحدث، أشعر بالأسى، أتألم مما أراه و أسمعه، أخاف على الوطن، و هي للاستعطاف و الاستقطاب، و لا يقصد بها التعبير عن المشاعر الوجدانية، بل غاية تأثيرية خارجية.

ج . أفعال التفسير المعبرة عن صاحبها: أوضح، أبين، أفسر، أشرح.

د . أفعال التقييم، و هي كثيرة: أقيم، أقدر، أعُد، أرى، أحرم، أجرم، أعيب، أصحح، أغلط، أحاسب، أقيس، و هذا النوع يكشف عن معتقد المتكلم

النفسي أنه مرجع التقييم و الحكم.

هـ . أفعال التعليل: يبرهن، يتسبب، يعلل، يربط، وهي للتبرير و التعليل، و توحي ببراءة الذمة مما ينسب إلى المتكلم. و أفعال الادعاء: أزعم، أدعي، أتوهم، أظن، يشيع، يفتن، يفتري. وهي تدل على المزايدة و الإفراط في الادعاء.

الثاني . الفعل التوجيهي(Directives): إنجازه يتمثل في توجيه المتكلم المخاطب إلى فعل معين على وجه الوجوب أو الندب أو التخيير، و يقوم على الإرادة و الرغبة، و هدفه محاولة توجيه المخاطب إلى فعل سلوك ما في المستقبل، و يمثله في اللغة العربية: صيغ الاستفهام، الأمر، النهي، الرجاء، النصح، السؤال، يمثل هذا النوع الاستفهام الصريح و الضمني، نحو: كيف تطورت الأحداث؟ من المسئول؟ الغرض: طلب المعرفة (إزالة الجهل)، و التأثير. الخروج من الحيرة، إزالة الحيرة بالجواب. و الاستفهام لغير الطلب في معظمها، و غرضه الاستنكار و التعجب، و تأثيرها: الاستقطاب. و يبدي المتكلم آراءه أحياناً، و لذلك يستعمل الأمر: "فليعلم الجميع"، و غرضه و النصح و التحذير، و مثله: و ينبغي أن ...، و يجب أن....، و منها تغيير الاعتقاد بالتحذير، نحو: فليحذر الذين يتاجرون بالدين و مصالح وطنهم، و يجب أن نحذر من الإشاعات، و منها التوضيح (الإعلام): أبين، أوضح، أكشف، أبرهن. و الدعاء (الطلب و النصح)، "حفظ الله البلاد و المواطنين" الدعاء غرضه تمني حصول الصواب.

و من الضرب الإنكاري: كيف نتقدم في ظل هذه الاضطرابات؟! و منها: الأمر، بالصيغة: افعلْ، أو بالمعنى المتضمن في القرار، نحو: أصدرت قراراً بـ .... ، و كلفت ...بـ ...، و قد يستخدم الأمر لمعاني أخرى، كالأمر الجماعي، نحو: " ينبغي أن نعلم....، ينبغي أن نحذر، و أن نتوخى جميع الأدلة...، ينبغي أن نأخذ الأمر على الجد ...."، "يجب أن يلتزم الجميع"، و الأصل أن يوجه الأمر إلى المخاطبين، فيعدل المتكلم عن "أنتم" إلى "نحن" للتشريك و التودد تحبباً أو تصنعاً، و قد يعول المتكلم في الخطاب على الجوانب العاطفية و الأخلاقية و الدينية و الوطنية؛ لتؤثر في المتلقي استقطاباً و توجيهاً نحو قصد المتكلم و أهدافه.

الثالث . الفعل التعهدي(Commitment): إنجازه يتمثل في تعهد المتكلم على نفسه بفعل شيء في المستقبل، فهو بمنزلة النذر للخير و التعهد و الوعد للناس ... ، و الالتزاميات أو التعهديات لا تقوم على مبدأ التأثير، ذلك أنها متصلة بالمتكلم، و هي مؤسسة على القصد، يلتزم فيها المتكلم بدرجات متفاوتة بالقيام بأفعال مستقبلية عن قصد، نحو الأفعال الدالة على الاستقبال: أعد بما ألزمت به نفسي، وعدت بإصلاحات، عاهدت نفسي و عاهتكم أن ....، و منها الاستقبال: ستشعرون بالإصلاحات في حينها، سيتحسن الاقتصاد، اعتمد الخطاب على التسويف، للدلالة على الإنجاز المستقبلي، و هو بمثابة الوعد، و قد يكون ترحيلاً أو خداعاً.

الرابع . الفعل التعبيري(Expressive): إنجازه يتمثل في التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه القصد... ، و الغرض منه: التعبير عن

مواقف نفسية، كالشكر، التهنئة، التعزية، الاعتذار، التمني، الكره، الندم، الحزن، و الاستنكار، مثل السؤال الاستنكاري: لما يحدث هذا؟! يستنكر المتكلم الحدث، و التمني الفعل "أتمنى" الذي يعبر عن الباطن، و مثله: أحب أن أعرب عن تقديري، و ليت كذا يعود...، و أتفهم رغبتهم في....، و التقييم هنا ذاتي.

و لم يشر أوستين و سيرل إلى معايير الصدق و الكذب فيه، و أرى أن القاضي فيها المتكلم الذي يعلم ما في نفسه، و للمتلقي أن يقارن بين ما يصف به حاله و فعله الواقعي.

الخامس . الفعل الإعلاني أو التصريحي(Declarations): ما يطابق محتواه القضوي الواقع، و يحدث تغييراً في الواقع...(**********)، و أبرز ما يميزه مطابقة المحتوى العالم، و هذا يعني أن هذا النوع يقوم على وضع غير لغوي (Code non linguistic)، و منه الإعلان عن صدور قرار و البيان الرسمي. و لم يتناول سيرل "الفعل العملي المقامي": المنجز في مقامه الخارجي الواقعي.

و قد رأى أوستين أن الاقتضاء يكون فيما مضى من الأفعال و أفعال الحال، و أرى أن الاقتضاء قد يتحقق مستقبلاً، فالاستقالة من المنصب الإداري مثلاً يقتضي أن المستقيل فقد صلاحية ممارسة العمل و إصدار

**********) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الدكتور محمود أحمد نحلة، ص ٤٠ : ٨٤ . مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه و ديتر فيهفجر، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، ص ٦٣ – ٦٦ .

القرار، و هذا شأن القرارات الرسمية التي يضرب للعمل بها موعداً مستقبلاً، و من ثم تتبع بعبارة: يجري العمل بهذا بدءاً من.... و ينتهب في ...، و منها الجمل الشرطية التي يترتب الجواب فيها على الشرط، نحو: إن تنحى الرئيس يتول آخر، خُلْو منصب الرئيس يقتضي تولي آخر؛ لئلا يبقى منصب الرئيس شاغراً.

و الفعل المقامي يختلف عن أفعال الكلام عند أوستين، فالفعل المقامي العمل الواقعي في العالم أو الحدوث في الواقع، بيد أن الأفعال الكلامية المنجزة قد تكون قيد زمن الفعل اللغوي دون الواقع أو التلفظ الذي عده أوستين إنجازاً في القول(††††††††††††††)، و منها ما يشمل كل وحدات التواصل اللغوي القولية و الإنجازية التي تعبر عن الأفعال المُنجزَة، و الفعل القولى فيه كل أنماط الأفعال القولية (Actes de parole)، و هذا النوع ليس منقطعاً عن الإنجاز، بل المرحلة التي تسبقه، فالأفعال الطلبية التي يعبر عنها بلفظها الصريح أو بالمعنى تنشد الأغراض الإنجازية (Acte illocutoire)، بقوة القول (Force illocutoire)، ففعل الأمر في زمن القول في العربية يطلب حدوث الفعل على وجه الإلزام أو الندب أو التخيير، أو يراد به الدعاء، و هو في صيغة الطلب "افعل"، و هذا يتطلب تفسيره في سياقه و مقامه، نحو: كفى عنفاً، كفى عنفاً. خرج عن دلالته الاعتيادية (الوجوب) في مقام النصح و الرجاء، فالمتكلم ليس

†††††††††††††††) ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام العامة، ص ١٤١

له سلطان على المخاطب يلزمه الفعل، فصار: كفوا عن العنف، للنصح و الرجاء. و الأمر لذي سلطان، نحو قول الرئيس: أمرته بكذا، أو أصدرت تعليماتي بـ....، و أصدرت قراراً بـ....، و منه الأمر بالمعنى: فرض و أوجب و قضي، و قد يتحقق الأمر بلام الأمر، و قد يفهم الطلب من المعنى الخبري نحو: الصلاة واجب ديني، أي: صل، و المذاكرة شرط النجاح: أي: ذاكر، و كذلك النهي لفظاً نحو: لا تفعل، و النهى بالمعنى نحو: حرم أو منع، أو بالتعبير الخبري: السرقة خطيئة دينية و جريمة قانونية، أي: لا تسرق، و هذا النوع و غيره من أنواع الجمل التي لا تحتمل الصدق أو الكذب تعرف بالجمل الإنشائية.

و قد تناول أوستين دلالة الأفعال في الجملة الإنجليزية (الفاعل ثم الفعل)، و تابعه بعض الباحثين العرب، و الجملة الاسمية في العربية تعبر عن الحدث أيضاً، و هي أقوي في تأكيد الواقعة من الجملة الفعلية، نحو: الوطن حر، الشعب متحد، فالإخبار بالخبر الوصفي، يتضمن ضمير المبتدأ، و فيه معنى الفعل الدال على الحدث، و كذلك المصدر: الحاكم عدل، و يقدر الحدث في الخبر شبه الجملة، و هو دال على الحدث، نحو: الوطن فوق الجميع، و الخبر الجامد يؤول بمشتق، فلا يخبر عن الذوات بالاسم الجامد إلا بتقدير معنى فيه وصف، فقولهم: مصر كنانة الإسلام (أي: كالكنانة) و درع الأمة (الوقاء و خط الدفاع)، و الشعب يد واحدة (أي: كاليد: بمعنى متحد)، و الجيش درع الوطن(يراد به القوة و المنَعَة، أي: الوقاء و الحماية)، و الوطن حصن الشعب(أي: الملاذ

الآمن)، و مصر أم العرب (أي: كالأم لهم أو مشبهة الأم أو الجامعة الحانية)، و مثل: القائد صلب. (أي: قوي)، و كلكم مصر، أي: وطنيون، فالحدث في الجملة الاسمية مضمن في المحمول أو الخبر المسند، و ليس في المسند إليه، و من ثم يدل الخبر على الوصف، و يقدر فيه الضمير كالفعل(‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡).

و قد نقد جرايس فكرة قصد المتكلم المضمن في خطابه، و رأى أن المتكلم يتجه نحو قصده دون تلفظ، و أن ما يقوله شيء آخر غير قصده، و أن المتلقي هو الذي يعين قصد المتكلم، فقال: "لماذا يقول القائل شيئاً . و هو يقصد ما يقوله؟ لكنه يريد أن يقول شيئاً آخر. و كيف يمكن للسامع أن يفهم العمل اللغوي غير المباشر في حين أن الجملة التي يسمعها تقول شيئاً آخر؟"، و من ثم نظر إلى البراجماتية على أنها تأويل قول المتكلم حسب فهم المتلقي المراد منه، و لم يعتد بمراد المتكلم نفسه؛ و قد ذهب بعض الغربيين هذا المذهب بدعوى أن بعض النصوص المجهولة لا نستطيع معرفة قائليها أو غايتهم من خطابهم، و قد تأثروا في هذا بالمذهب الوضعي و نظرية "موت المؤلف" الفاسدة.

و هذا قول مردود؛ فالمعاني التركيبية لها قرائن قواعدية و سياقية و عقلية تعرف بها، و ليس معرفة القائل شرط تعيين القصد، فقولنا: العلم

) ارجع إلى: شرح الجمل؛ ابن عصفور، جـ١/ ٣٤٠، و شرح ابن عقيل، جـ١/ ‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡‡ ٢٠١، و همع الهوامع، السيوطي، جـ١،٩٣، و ما بعدها.

نور، لا يراد ظاهر المعنى، بل لازمه المجازي، و العقل قرينة المعنى المجازي هنا، و الجمل المعدول بها عن صريح لفظها في الخطاب المنطوق تفهم في ضوء مقامها، و ليس هذا النوع عاماً في اللغة، فالمجاز نوع من المعنى.

و المراد بالقصد هنا ما يحمله الخطاب الإخباري خبرياً أو إنشائياً، و ما يفعله المتكلم نفسه دون قصد الإخبار لا يتلفظ به، نحو: عزمه على الخروج أو الجلوس أو النوم و كل ما يتعلق بسلوكه الشخصي، و المراد بأفعال الكلام أفعال الخطاب الموجه التي تتضمن طلباً من المخاطب، و ليس بصحيح أن فهم القصد مطلق للمتلقي، فهو يتحرى مراد المتكلم بضوابط خطابية و قرائن تؤكد أن ما فهمه قصد المتكلم، و هذا ليس مشكلاً في الخطاب اليومي الذي يستخدم المتكلم فيه لغة مباشرة و واضحة قيد مقامها، نحو: "قفْ" الذي يفهم في إطار علاقة المتكلم بالمتلقي في المقام، فهو يحتمل من غير هذه القرائن معاني: الطلب و النصيحة و التهديد، و قرينة المقام تعين واحداً.

نقد مذهب أفعال الكلام:

ا . أن القواعد التي وضعها تمثل قرارات القطاع الإداري (القضاء الذي تأثر به أوستين)، و لا تطرد في كل المؤسسات و الحقول، و لا يلزم العمل بها في كل خطاب(§§§§§§§§§§§§§§§)، لأنها اختزلت الواقع و التعبير عنه في

§§§§§§§§§§§§§§§) ارجع إلى: النظريات اللسانية الكبري من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص٣٦٢

الأفعال اللغوية، دون الجملة الخبرية . و الجملة الاسمية في اللغة العربية.

ب . أنه أهمل وظائف السياق و المقام و عناصر التعبير الأخرى كالإشارة و الرمز و التعبيرات الجسمية و دلالة الهيئة في التعبير عن القصد.

ج . أنه أهمل قرائن المعني اللفظية و المقامية و العقلية، و هي أساس تعيين القصد، و القرائن مبحث في علم المقاصد عند علماء الأصول المسلمين، و قد جهلها البحث الغربي الحديث، بل أخرج المذهب البنويوي المعنى من البحث اللغوي، و المعنى محل القصد، و إنما وضعت الألفاظ أوعية خادمة له.

د . أنه اختزلت الإنجاز التعبير في الشكل الإنشائي، و الأصل في التعبير عن الحدث الخبر بنوعيه الاسمي و الفعلي، فالتلفظ المفيد كله إنجاز قولي يعبر عن المعاني و الأعيان، و الغرض منه تحقيق المقاصد، و معيار التصديق علي الأعيان الإنجاز الواقعي، و يعبر عن العين بالملفوظ الاسمي و الفعلي خبراً أو إنشاء، نحو: زيد ناجح، و نجح زيد، و ما أحسن نجاح زيد!

هـ . أنه خالف العرف اللغوي في جعل الأساليب الإنشائية ساحة الإنجاز اللفظي و الواقعي، فقد اختزلت التعبير الإنجازي في الأساليب الإنشائية، و هي من صور التعبير عن المعاني الخاصة، و المشهور أن الإنجاز اللفظي عام في الملفوظ، و الإنجاز الواقعي فيما دل على حدوث الحدث في الواقع معنى و زمناً كدلالة الجملة الاسمية على الحدث الواقعي المنجز كقولنا: الرئيس تنحى، و منصب الرئيس شاغر، و دلالة الفعل الماضي

على انقضاء معناه الواقعي كقولنا: تنحى الرئيس عن منصبه و استقال منه، و أُعفي منه و أُقيل و خُلع، و ما دل عليه تعريضاً نحو: غادر البلاد سراً إلى جهة مجهولة، طلب حق اللجوء السياسي.

و . أنه اكتفى بالمقدمات و القضايا القانوية التي يترتب عليها أثر في الواقع، و لم يتناول دلالة أفعال اللغة في غير الطلب.

ز . أنه لا توجد فروق واضحة بين الحدث و الفعل في و الإنجاز، فقد سوى بين أداء الكلام و الفعل الواقعي في الإنجاز، و الصواب أن الكلام صورة المعنى و الفكرة الحسية، و ليس الكلام من جنس الفعل العملي في الواقع، بل سبب في حدوثه.

ح . أنه عول على فهم المتلقي القصد من الإنشاء، و القصد مرجعه القائل و قرائن قوله، و ليس المتلقي، و يفهم القصد من الخبر و الإنشاء تصريحاً و تعريضاً، و تعيينه يتطلب قرائن لغوية و مقامية و مقامية غير متوفرة في الجملة وحدها، و لا يمكن تعيين القصد في أفعال الكلام دون قرائن.

ط . أنه جعل رد الفعل العملي عنصراً أساساً في أثر كل القول، و أنه موضع التقييم عند حدوثه، و أنه اختزل رد الفعل في السلوك المباشر و الفعل العملي، و أهمل ردود الأفعال الأخرى، فرد الفعل قد يكون نفسياً غير ظاهر، و قد جعل أيضاً كل ردود الأفعال إيجابية، و أهمل السلبية، و قد جعلها مباشرة و سريعة، و أهمل غير المباشرة و المتراخية.

ي . أن الدراسة فيه جزئية، و لا تطرد أحكامها إلا في نوع من الأفعال الرسمية الإلزامية.

ك . أنه اختزل المعاني و المقاصد في الأفعال؛ لتأثرها بالمادية، و المعلوم أن المعاني المفيدة التي تتضمن قصد المتكلم معاني الجمل أو الخطاب، و أن إدراك المعاني الحقيقة للمنطوق يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية(**********).

. أنه اهتم بالأفعال الإنشائية، و المعلوم أن الجمل القابلة للتصديق معاني الجمل الخبرية، و ليس الإنشائية، و هي التي تتضمن التعبير عن الإنجاز العملي و المعنى القطعي.

وقد استُثمرت مقولات "الفعل الإنجازي" في علم اللغة النصي و في النقد الأدبي الحديث في الغرب منذ السبعينات، و قد عد بعض الباحثين الكلام الأدبي و غير الأدبي فعلاً لغوياً (Speech Act) يدل على قصد المتكلم، و قد توسع الباحثون العرب في استخدام هذه النظرية في البحث و التحليل، و قد غالى بعضهم فطبقها على الخطاب القرآني، و أسقط مفاهيمها عليه.

**********) لقد تناولت أفعال الكلام في كتابيّ تحليل الخطاب و البراجماتية اللسانية.